الفصل الأول:

القلـــب السليـــم

دراسة موضوعية من القرآن والسنة

obeikandl.com

المبحث الأول:

القلب في القرآن

خلق الله المخلوقات ومنها: الإنسان والحيوان والنبات والجمادات .

فأما الجمادات: فلا حياة فيها وهي مُسَخَّرَة لخدمة الإنسان والنباتات . والحيوانات خلقها الله وفيها الحياة وجعلت لخدمة الإنسان ، فالنبات أرقى من الجمادات لأنها تتميز بنوع من الحياة فيها ، والحيوانات أرقى من الجمادات والنباتات لأنها تتحرك وكذلك لأنها قد يكون لها مجتمع ونظام مثلاً كمملكتي النمل والنحل .

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٨) .

وكذلك للحيوانات خاصية الشهوة كشهوة البطن والفَرْج كما هو في الإنسان الذي فضله الله على الجميع .

وأيضاً الإنسان له خاصية النمو ويشترك فيها مع النبات كما بينت الآيات القرآنية ، فهو يولد وينمو ويزداد قوة ثم يصبح قوياً ثم شيخاً ثم يموت كحال النباتات .

وللإنسان أيضاً الخاصية الشهوانية الحيوانية - شهوة البطن وشهوة الفرج - ولكنها تختلف في الإنسان عن الحيوان بأنها محكومة بالإدراك والتمييز الذي منحه الله تعالى به وهو العقل ، لذلك عندما وهبه الله نعمة العقل كَلَّفه بالشرائع فخاطبه الله تعالى في القرآن بالأوامر والنواهي .

ولكون الإنسان مكون من جسم وروح ونفس وعقل - قلب -:

١ - فالجسم: هو عبارة عن المركب أو الجوارح (اليدان والرجلان والعينان واللسان والبطن والفرج والرأس) فقد ذكره الله في القرآن ولكن ليس له أهمية تماثل أهمية الروح أو النفس أو القلب .

قال ﷺ : «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم**»

وأشار إلى صدره [١].

وفي حديث آخر قال ﷺ : «**التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات**» [٢].

وقال الله سبحانه وتعالى مخبرا عن المنافقين واصفاً إياهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (المنافقون: ٤)

٢ – الروح: لا يعلم حقيقة الروح إلا الله فالروح ببساطة هي الطاقة المحركة لهذا الجسم التي لا نراها مثل الكهرباء للثلاجة والمايكروفون والسيارة .

فبدون الروح الجسم عبارة عن جسد ميت . قال تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الإسراء: ٨٥) .

٣ – النفس: لقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم وبين أنها ثلاثة أنواع

* النفس المطمئنة: وهي التي تأمر صاحبها بعمل الخير دائماً وهي المطمئنة بثواب الله عز وجل ، وهي النفس المؤمنة الموقنة وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى حيث

قال: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾(الفجر: ٢٧ - ٣٠) .

* النفس الخبيثة: وقد ذكرها الله تعالى في القرآن ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (يوسف: ٥٣)

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ من الزلل ﴿ إِنَّ النَّفْسَ ﴾ النفس هنا للجنس ﴿ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ كثيرة الأمر به [٣] .

---

(١) صحيح مسلم .
(٢) صحيح مسلم .
(٣) الجلالين ، بتصرف .

* النفس اللوامة: وهي التي تلوم نفسها وإن اجتهدت بالإحسان وهي التي تأمر صاحبها بعمل الشر ثم تأمره بالعودة إلى الله والتوبة وكلما همت بعمل السوء تلومه .

٤ - **العقل**: وهو المدبر الحاكم الآمر الناهي (المَلِك) العام للجسم الذي يعرف الخطأ والصواب وهو منشأ الإدراك والتمييز وهو المفرق بين الحق والباطل والنور والظلام والهدى والضلال .

انتبه: **أين محل العقل إذاً؟**

محل العقل هو القلب ذلك الجوهر الموجود في الصدر والذي له نوع من التعلق بالقلب العضوي - العضلة التي تضخ الدم - ولا يعرف سره إلا الله كالروح والنفس فهو المخاطب وهو المعاتب وهو المحاسب .

كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزمر: ٢٢) .

والمعنى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ أفمن فتح الله صدره لمعرفته والإقرار بوحدانيته والإذعان لربوبيته والخضوع لطاعته ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ فهو على بصيرة مما هو عليه ويقين بتنوير الحق في قلبه ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي فويل للذين جَفَّت قلوبهم ونأتْ عن ذكر الله وأعرضَت ، أولئك في ضلال مبين [١] .

إذا نفهم من ذلك أن الله تعالى لم يخاطب جوارحنا ولكن يخاطب قلوبنا وعقولنا فالجوارح ما هي إلا أدوات تأتمر بأوامر القلب فإذا صَلُحَ القلب ظهر أثر صلاحه نور على الجوارح ، ولكن إذا كان القلب مظلماً يعلوه الران - السواد - فهو كالصدأ .

قال تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين: ١٤) .

قال ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وزجر لقولهم ذلك ﴿ بَلْ رَانَ ﴾ غَلَبَ ﴿ عَلَى قُلُوبِهِم ﴾

---

(١) الطبري ، بتصرف .

فغشيها ﴿ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من المعاصي ؛ فهو كالصدأ [١] .

فحقيقة القلب أنه هو الطائع حقيقة أو العاصي إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٩) .

ولذا يقول ﷺ : «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» [٢] .

وصدق القائل: المرء بأصغريه بقلبه ولسانه .

وإليك أخي وحبيبي ما جاء في القرآن من آيات تتكلم عن القلب ومنها:

١ – في قلوبهم مرض...).

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (البقرة: ١٠)

بين – سبحانه – العلة في خداعهم لله وللمؤمنين فقال : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ .

والمرض : العلة في البدن ونقيضه الصحة ، وقد يستعمل على وجه الاستعارة فيما يعرض للمرء فيخل بكمال نفسه ، كسوء العقيدة والحسد ، والبغضاء والنفاق ، وهو المراد هنا .

وسمي ما هم فيه من نفاق وكفر مرضا ، لكونه مانعا لهم من إدراك الفضائل . كما أن مرض الأبدان يمنعها من التصرف الكامل .

وجعل القرآن قلوبهم ظرفا للمرض ، للإشعار بأنه تمكن منها تمكناً شديداً كما يتمكن الظرف من المظروف فيه .

ثم أخبر – سبحانه – بأنهم بسبب سوء أعمالهم قد زادهم الله ضلالا وخسراً فقال: ﴿ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ .

---

(١) الجلالين .
(٢) البخاري ١/ ١٢٦ ، مسلم ٢٧ ، ١١/٢٨ .

لأنهم استمروا في نفاقهم وشكهم، ومن سنة الله أن المريض إذا لم يعالج مرضه زاد لا محالة مرضه، إذ المرض ينشئ المرض، والانحراف يبدأ يسيراً ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة وتزداد.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين قد زادهم رجساً على رجسهم، ومرضا على مرضهم، وحسدا على حسدهم، لأنهم عموا وصموا عن الحق، ولأنهم كانوا يحزنون لأي نعمة تنزل بالمؤمنين. كما قال - تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ (آل عمران: ٢٠) ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال: ﴿ وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾.

﴿ أَلِيمٌ ﴾ أي: مؤلم وموجع وجعاً شديدا. من ألم - كفرح - فهو ألم، وآله يؤله إيلاما، أي: أوجعه إيجاعاً شديدا.

والكذب: الإخبار عن الشيء بخلاف الواقع. ولقد كان المنافقون كاذبين في قولهم: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ وهم غير مؤمنين.

وجعلت الآية الكريمة العذاب الأليم مرتبا على كذبهم مع أنهم كفرة، والكفر أكبر معصية من الكذب، للإشعار بقبح الكذب، وللتنفير منه بأبلغ وجه، فهؤلاء المنافقون قد جمعوا الخستين، الكفر الذي توعد الله مرتكبه بالعذاب العظيم، والكذب الذي توعد الله مقترفة بالعقاب الأليم.

وعبر بقوله: ﴿ كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ لإفادة تجدد الكذب وحدوثه منهم حيناً بعد حين، وأن هذه الصفة هي أخص صفاتهم، وأبرز جرائمهم.

٢ - ولكن بما كسبت قلوبكم...

﴿ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٢٥)

المؤاخذة: مفاعلة من الأخذ بمعنى المحاسبة أو المعاقبة أو الإلزام بالوفاء بها.

واللغو من الكلام : الساقط الذي لا يعتد به ولا يصدر عن فكر وروية ، مصدر لغا يلغو ويلغى .

والمعنى : لا يعاقبكم الله - تعالى - ولا يلزمكم بكفارة ما صدر عنكم من الأيمان اللاغية ، فضلا منه - سبحانه - وكرماً .

واليمين اللغو هو التي لا يقصدها الحالف ، بل تجري على لسانه عادة من غير قصد ، وقد ذكر العلماء صوراً لها منها - كما يقول ابن كثير :

ما رواه عطاء عن عائشة أنها قالت : (اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته كلا والله وبلى والله) وفي رواية عن الزهري عن عروة عنها أنها قالت : (اللغو في اليمين هو ما يكون بين القوم يتدارسون في الأمر - أي يتناقشون ويتذاكرون فيه - فيقول هذا لا والله وبلى والله وكلا والله لا تعقد عليه قلوبهم) أي تجري على السنتهم ألفاظ اليمين ولكن بدون قصد يمين:

ومنها ما جاء عن عروة عنها أنها كانت تتأول هذه الآية يعني قوله - تعالى - : ﴿ لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللغو فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ وتقول : (هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه) .

ثم بين - سبحانه - اليمين التي هي موضع المحاسبة والمعاقبة فقال : ﴿ ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ .

أي : لا يؤاخذكم الله في اليمين التي لم تصدر عن روية ولكن يؤاخذكم أي يعاقبكم في الآخرة بما قصدته قلوبكم وتعمدتم فيه الكذب في اليمين ، بأن يحلف أحدكم على شيء كذب ليعتقد السامع صدقه ، وتلك هي اليمين الغموس - أي التي تغمس صاحبها في النار - ويدخل فيها الأيمان التي يحلفها شهود الزور والكاذبون عند التقاضي ومن يشابههم في تعمد الكذب .

ويرى جمهور العلماء أن هذه اليمين لا كفارة فيها وإنما كفارتها التوبة الصادقة ، ورد الحقوق إلى أصحابها إن ترتب على اليمين الكاذبة ضياع حق أو حكم بباطل .

ويرى الإمام الشافعي أنه يجب فيها فوق ذلك الكفارة .

والباء في قوله : ﴿ بِمَا ﴾ للسببية ، وما مصدرية أي ، لا يؤاخذكم باللغو ولكن يؤاخذكم بالكسب ، أو موصولة والعائد محذوف أي ولكن يؤاخذكم بالذي كسبته قلوبكم .

وقوله : ﴿ واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ تذييل لتأكيد معنى عدم المؤاخذة في اللغو . أي والله غفور حيث لم يؤاخذكم باللغو حليم حيث لم يعاجل المخطئين بالعقوبة .

٣ - وليمحص ما فى قلوبكم...

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾(آل عمران: ١٥٤)

ثم بين - سبحانه - بعض الحكم من وراء ما حدث للمسلمين فى أحد فقال : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ واللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ (آل عمران: ١٥٤) .

والابتلاء : الاختبار وهو هنا كناية عن أثره ، وهو إظهاره للناس ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

والتمحيص تخليص الشيء مما يخالطه مما فيه عيب له .

والجملة معطوفة على كلام سابق يفهم من السياق . والتقدير : نزل بكم ما نزل من الشدائد فى أحد لتتعودوا تحمل الشدائد والمحن ، وليعاملكم - سبحانه - معاملة المختبر لنفوسكم ، فيظهر ما تنطوى عليه من خير أو شر ، حتى يتبين الخبيث من الطيب وليخلص ما فى قلوبكم ويزيل ما عساه يعلق بها من أدران ، ويطهرها مما يخالطها من ظنون سيئة - فإن القلوب يخالطها بحكم العادة وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة وحب الشهوات . ما يضاد ما أودع الله فيها من إيمان وإسلام وبر وتقوى .

فلو تركت فى عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ، ولم تتمحص من الآثام فاقتضت حكمة الله - تعالى - أن ينزل بها من المحن والبلاء ما يكون بالنسبة لها كالدواء

الكريه لمن عرض له داء .

وقوله ﴿ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أى عليم بأسرارها وضمائرها الخفية التى لا تفارقها فهو القائل: ﴿ إِنَّ الله لاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرض وَلاَ فِي السماء ﴾ (آل عمران: ٥) وهو القائل ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول فإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ (طه: ٧) ثم أخبر - سبحانه - عن الذين لم يثبتوا مع النبى ﷺ يوم أحد ، وبين السبب فى ذلك وفتح لهم باب عفوه فقال : ﴿ إِنَّ الذين تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ التقى الجمعان إِنَّمَا استزلهم الشيطان بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا الله عَنْهُمْ إِنَّ الله غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٥٥) .

٤ - أولئك هم الغافلون.....

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾(الأعراف: ١٧٩)

قوله ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن ﴾ كلام مستأنف مقرر لمضمون ما قبله ومفصل له .

و " الذرء " الخلق . يقال : ذرأ الله خلقه يذرؤهم ذرءًا ، أى : خلقهم . واللام فى ﴿ لِجَهَنَّمَ ﴾ للعاقبة والصيرورة .

أى : ولقد خلقنا لدخول جهنم والتعذيب بها كثيراً من الجن والإنس وهم الكفار المعرضون عن الآيات وتدبرها ، الذين علم الله منهم أزلا اختيارهم الكفر فشاءه منهم وخلقه فيهم وجعل مصيرهم النار لذلك .

ثم بين - سبحانه - صفاتهم التى أدت بهم إلى هذا المصير السيئ فقال . ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ أى : لا يفقهون بها الآيات الهادية إلى الكمالات مع أن دلائل الإيمان مبثوثة فى ثنايا الكون تدركها القلوب المتفتحة ، والبصائر المستنيرة .

وجملة ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ ﴾ فى محل نصب صفة أخرى لقوله ﴿ كَثِيراً ﴾ وجملة ﴿ لاَّ

يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ فى محل رفع صفة لـ (قلوب) .

وقوله ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ أى : لهم أعين لا يبصرون بها ما فى هذا الكون من براهين تشهد بوحدانية الله ، مع أنها معروضة للأبصار مكشوفة للأنظار ، فهم كما قال - تعالى -: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٥) فهم لهم أعين ترى وتبصر ولكن بدون تأمل أو اعتبار ، فكأن وجودها وعدمه سواء .

وقوله ﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (الأعراف: ١٧٩) أى : لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ، أى أنهم لا ينتفعون بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سببا للهداية .

قال صاحب الكشاف : (هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم ، وجعلهم فى أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق ، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار ، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات سماع تدبر كأنهم عدموا فهم القلوب ، وإبصار العيون واستماع الآذان ، وجعلهم - لإعراقهم فى الكفر وشدة شكائمهم فيه ، وأنه لا يأتى منهم إلا أفعال أهل النار - مخلوقين للنار ، دلالة على توغلهم فى الموبقات ، وتوغلهم فيما يؤهلهم لدخول النار) .

وقوله ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ ﴾ أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات المذكورة كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سبباً للهداية .

وقوله ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ تنقيص لهم عن رتبة الأنعام ، أى : بل هم أسوأ حالا من الأنعام ، إذ أن الأنعام ليس لها الاستعدادات الفطرية التى تهديها ، أما الإنسان فقد زود إلى جانب الفطرة بالقلب الواعى ، والعقل المدرك ، والعين المبصرة ، وزود بالقدرة على اتباع الهدى أو اتباع الضلال ، فإذا لم يفتح بصره وقلبه وسمعه على الحق فإنه يكون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية .

وقوله ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ أى أولئك المنعوتون بما ذكرهم الكاملون فى الغفلة

عما فيه صلاحهم وخيرهم وسعادتهم، بسبب استحواذ الهوى والشيطان عليهم ولا يظلم ربك أحدا.

٥- وطبع على قلوبهم....

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾(التوبة: ٩٣)

فهذه الآيات الكريمة بيان لما سيكون من أمر المنافقين الذين قعدوا فى المدينة بدون عذر، بعد أن يرجع الرسول ﷺ إليهم والمؤمنون من تبوك.

والمعنى: إذا كان الضعفاء والمرضى ومن فى حكمهم، لا إثم ولا عقوبة عليهم بسبب تخلفهم عن الجهاد، فإن " السبيل " أى الإثم والعقوبة ﴿ عَلَى الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ فى التخلف " وهم أغنياء " أى يملكون كل وسائل الجهاد من مال وقوة وعدة.

وقوله: ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ استئناف تعليلى مسبوق لمزيد مذمتهم.

أى: استأذنوك مع غناهم وقدرتهم على القتال، لأنهم لخلو قلوبهم من الإيمان، ولسقوط همتهم وجبنهم، رضوا لأنفسهم أن يبقوا فى المدينة مع الخالف من النساء والصبيان والعجزة.

وقوله: ﴿ وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ بيان لسوء مصيرهم

أى: وبسبب هذا الإصرار على النفاق، والتمادى فى الفسوق والعصيان، ختم الله - تعالى - على قلوبهم، فصارت لا تعلم ما يترتب على ذلك من مصائب دينية ودنيوية وأخروية.

٦- صرف الله قلوبهم.....

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾(التوبة: ١٢٧)

والمعنى: إذا ما أنزلت سورة من سور القرآن عليك يا محمد: تساءل المنافقون عنها فى

حذر وريبة ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ﴾ (التوبة: ١٢٤) لأشباهه فى الكفر والنفاق على سبيل الاستهزاء والتهوين من شأن القرآن الكريم ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً ﴾ (التوبة: ١٢٤) أى: واحد منكم زادته هذه السورة النازلة إيمانا؟

وهنا يجىء الرد الحاسم الذى يخرس ألسنتهم، من جهته - تعالى - فيقول: ﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٤).

أى: فأما الذين آمنوا فزادهم نزول السورة القرآنية، إيمانا على إيمانهم، وثباتا على ثباتهم، ويقينا على يقينهم، " وهم " فوق ذلك " يستبشرون " ويفرحون بنزولها لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية.

هذا شأن المؤمنين بالنسبة لنزول السورة القرآنية، وأما المنافقون، فقد صور القرآن حالهم بقوله: ﴿ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ ﴾ (التوبة: ١٢٥).

أى: وأما الذين فى قلوبهم شك ونفاق وارتياب، فزادهم نزول السورة كفرا على كفرهم السابق.

وسمى - سبحانه - الكفر رجسا، لأنه أقبح الأشياء وأسوؤها.

وقوله: ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٥) تذييل قصد به بيان سوء عقابتهم فى الآخرة بعد بيان سوء أعمالهم فى الدنيا.

أى: لقد قضى هؤلاء المنافقون حياتهم فى الكفر والفسوق والعصيان، ثم لم يتوبوا عن ذلك ولم يرجعوا عنه، بل ماتوا على الكفر والنفاق.

وقوله: ﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ (التوبة: ١٢٦) توبيخ لهم على قسوة قلوبهم، وانطماس بصيرتهم، وغفلتهم عما يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ.

أى: بلغ الجهل والسفه وعمى البصيرة بهؤلاء، أنهم صاروا لا يعتبرون ولا يتعظون بما حاق من فتن واختبارات وابتلاءات، تنزل بهم فى كل عام مرة أو مرتين؟!

ومن هذه الفتن والامتحانات : كشف مكرهم عن طريق اطلاع رسول الله ﷺ على ما يضمرونه من سوء ، وما يقولونه من منكر ، وما يفعلونه من أفعال خبيثة ، وحلول المصائب والأمراض بهم ، ومشاهدتهم لانتصار المؤمنين وخذلان الكافرين .

قال الآلوسى : والمراد من المرة والمرتين - على ما صرح به بعضهم - مجرد التكثير ، لا بيان الوقوع على حسب العدد المذكور .

وقوله : ﴿ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٦) بيان لرسوخهم فى الجهل والجحود .

أى : ثم بعد كل هذه الفتن النازلة بهم ، لا يتوبون من نفاقهم ﴿ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٦) ويتعظون ، بل يصرون على مسالكهم الخبيثة ، وأعمالهم القبيحة ، مع أن من شأن الفتن والمصائب والمحن ، أنها تحمل على الاعتبار والاتعاظ ، والرجوع عن طريق الشر إلى طريق الخير .

ثم تصور السورة الكريمة تصويرا معجزا ، مشهدهم عندما تنزل السورة القرآنية على الرسول ﷺ وهم حاضرون فى مجلسه فتقول : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ (التوبة: ١٢٧) أو آيات منها ، على الرسول ﷺ وهم موجودون فى مجلسه ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ (التوبة: ١٢٧) فى ريبة ومكر ، وتغامزوا بعيونهم وجوارحهم فى لؤم وخسة ثم تساءلوا : ﴿ هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ (التوبة: ١٢٧) أى : هل يراكم من أحد من المسلمين إذا ما قمتم من هذا المجلس ، قبل أن يتلو الرسول ﷺ هذه السورة أو الآيات التى قد تفضحكم وتكشف عما أسررتموه فيما بينكم .

﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾ من مجلس الرسول ﷺ متسللين فى حذر حتى لا يراهم أحد من المسلمين .

وقوله : ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٧) ذم لهم لإيثارهم الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية .

أى : صرف الله قلوبهم عن الهداية والرشاد ، بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما فيه خيرهم

ونفعهم ، وإنما يفقهون ما فيه شقاؤهم وتعاستهم .

هـذا ، وإن الناظـر فـى هـذه الآيـات الكريمة يتدبر ويإمعان ، ليراها قد صورت أحوال المنافقين وأخلاقهم وحركاتهم تصويرا دقيقا معجزا ، حتى إنه ليخيل إلى القارئ لهذه الآيات الكـريمة أو الـسامع لها ، أنه يشهد المنافقين مشاهدة حسية وهم على تلك الحالة من التحرك المريب والنظرات الخبيثة ، والخروج من مجلس النبى ﷺ فى حذر وريبة . .

وهـذا كله مما يشهد بأن هذا القرآن إنما هو من عند الله العليم بخفايا الصدور ، وبطوايا النفوس .

٧ – فلن يهتدوا إذا أبدا...

﴿ وَمَـنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَـى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴾(الكهف: ٥٧) .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ .

والاسـتفهام هـنا للنفى والإنكار والمراد بالآيات آيات القرآن الكريم ، لقوله – تعالى – بعد ذلك : ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ .

والمراد بالنسيان : الترك والإهمال وعدم التفكر والتدبر فى العواقب .

أى : ولا أحد أشد ظلما وبغيا من إنسان ذكره مذكر ووعظه بآيات الله التى أنزلها على رسـوله ﷺ فأعرض عنها دون أن يقبلها أو يتأملها ، بل نبذها وراء ظهره ، ونسى ما قدمت يداه من السيئات والمعاصى ، نسيان ترك وإهمال واستخفاف .

ثـم بين – سبحانه – علة هذا الإعراض والنسيان فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبَداً ﴾ (الكهف: ٥٧) .

والأكنة : جمع كنان بمعنى غطاء ، والوقر الثقل والصمم . يقال فلان وقرت أذنه ، أى : ثقل سمعها وأصيبت بالصمم .

أى : إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الظالمين المعرضين عن الحق ، أغطية تمنع قلوبهم عن وصول النور إليها ، وتحجبها عن فقه آياته - سبحانه - وجعلنا - أيضا - فى آذانهم صمما وثقلا عن سماع ما ينفعهم وذلك بسبب استحبابهم العمى على الهدى ، وإيثارهم الكفر على الإيمان .

﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ إِلَى الْهُدَى ﴾ والرشد فلن يستجيبوا لك ، ولن ﴿ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴾ إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، بسبب زيغ قلوبهم ، واستيلاء الكفر والجحود والعناد عليها .

والضمير فى قوله ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ يعود إلى الآيات ، وتذكيره وإفراده باعتبار المعنى ، إذ المراد منها القرآن الكريم .

وجاءت الضمائر فى أول الآية بالإفراد ، كما فى قوله ، ﴿ ذُكِّرَ ﴾ و ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ باعتبار لفظ " من " فى قوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ وجاءت بعد ذلك بالجمع كما فى قوله سبحانه - : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ باعتبار المعنى .

وهذا الأسلوب كثير فى القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ (الطلاق: ١١) فالضمير فى قوله : " يؤمن ويعمل ويدخله " جاء بصيغة الإفراد باعتبار لفظ " من " ، وفى قوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ جاء بصيغة الجمع باعتبار معنى "من" .

٨ - سوء عاقبة الفريقين...

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (الحج: ٥٣) .

أى : فعل ما فعل - سبحانه - ليجعل ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه فى القلوب فتنة واختبارا وامتحانا ، للذين فى قلوبهم مرض ، أى : شك وارتياب ، وهم المنافقون ، وللذين قست قلوبهم ، وهم الكافرون المجاهرون بالجحود والعناد .

فقوله - تعالى - : ﴿ لِّيَجْعَلَ ﴾ متعلق ب ﴿ أَلْقَى ﴾ أى : ألقى الشيطان فى أمنية الرسل والأنبياء ليجعل الله - تعالى - ذلك لإلقاء فتنة الذين فى قلوبهم مرض .

ومعنى كونه فتنة لهم : أنه سبب لتماديهم فى الضلال ، وفى إصرارهم على الفسوق والعصيان .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الفريقين فقال : ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وهم من فى قلوبهم مرض ، ومن قست قلوبهم ﴿ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أى لفى خلاف للحق شديد ؛ بسبب نفاقهم وكفرهم .

ثم بين - سبحانه - حكمة أخرى لما فعله الشيطان من إلقاء الشبه والوساوس فى القلوب فقال : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج: ٥٤) .

والضمير فى ﴿ أَنَّهُ ﴾ يعود إلى ما جاء به الرسل والأنبياء من عند ربهم .

أى : وفعل ما فعل - سبحانه - أيضا ، ليعلم العلماء من عباده ، الذين حبب - سبحانه - إليهم الإيمان ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، أن ما جاء به الرسل والأنبياء هو الحق الثابت من ربك ، فيزدادوا إيمانا به ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : فتخضع وتسكن وتطمئن إليه نفوسهم .

و ﴿ وَإِنَّ اللهَ ﴾ - تعالى - ﴿ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ به وصدقوا أنبياءه ورسله ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج: ٥٤) يوصلهم إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

هذا ، وقد أبطل العلماء - قديما وحديثا - قصة الغرانيق ، ومن العلماء القدماء الذين تصدوا لهذا الإبطال الإمام الفخر الرازى ، فقد قال ما ملخصه : قصة الغرانيق باطلة عند أهل التحقيق ، واستدلوا على بطلانها بالقرآن والسنة والمعقول .

٩ - أولئك هم الظالمون...

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ

أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(النور: ٥٠)

ثم يعقب القرآن الكريم على تصرفاتهم القبيحة بإثبات نفاقهم، وبالتعجب من ترددهم وريبهم، وباستنكار ما هم عليه من خلق ذميم فيقول: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارتابوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ (النور: ٥٠) ؟!.

وقوله: ﴿ يَحِيفَ ﴾ من الحيف، وهو الميل إلى أحد الجانبين، يقال: حاف فلان فى قضائه، إذا جار وظلم.

أى: ما بال هؤلاء المنافقين يعرضون عن أحكام الإسلام ولا يقبلون على حكم الرسول ﷺ إلا إذا كانت لهم حقوق عند غيرهم أسبب ذلك أنهم مرضى القلوب بالنفاق وضعف الإيمان؟ أم سبب ذلك أنهم يشكون فى صدق نبوته ﷺ ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟

لا شك أن هذه الأسباب كلها قد امتلأت بها قلوبهم الفاسدة، وفضلا عن ذلك فهناك سبب أشد وأعظم، وهو حرصهم على الظلم ووضع الأمور فى غير مواضعها، ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة - بقوله: ﴿ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

أى: بل أولئك المنافقون هم الظالمون لأنفسهم ولغيرهم، حيث وضعوا الأمور فى غير موضعها، وآثروا الغى على الرشد، والكفر على الإيمان.

١٠- ولكن ما تعمدت قلوبكم...

﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (الأحزاب: ٥).

﴿ ادعوهم لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله ﴾ أى انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آبائهم، فإن هذا النسب هو أقسط وأعدل عند الله - تعالى -.

قال الآلوسى: أخرج الشيخان " عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد. حتى نزل القرآن: ﴿ ادْعُوهُمْ

لآبَائِهِمْ﴾ فقال ﷺ : «أنت زيد بن حارثة بن شراحيل» .

وكان زيد قد أسر فى بعض الحروب ، ثم بيع فى مكة ، واشتراه حكيم بن حزام ، ثم أهداه إلى عمته السيدة خديجة ، ثم أهدته خديجة - رضى الله عنها - إلى النبى ﷺ وصار الناس يقولون : زيد بن محمد ، حتى نزلت الآية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَإِن لَّمْ تعلموا آبَاءَهُمْ فَإِخوَانُكُمْ فِي الدين وَمَوَالِيكُمْ ﴾ إرشاد إلى معاملة هؤلاء الأدعياء فى حالة عدم معرفة آبائهم .

أى : انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آباءهم الحقيقيين لكى تنسبوهم إليهم ، فهؤلاء الأدعياء هم إخوانكم فى الدين والعقيدة ، وهم مواليكم ، فقولوا لهم ، يا أخى أو يا مولاى ، واتركوا نسبتهم إلى غير آبائهم الشرعيين .

وفى الجملة الكريمة إشارة إلى ما كان عليه المجتمع الجاهلى من تخلخل فى العلاقات الجنسية ، ومن اضطراب فى الأنساب ، وقد عالج الإسلام كل ذلك بإقامة الأسرة الفاضلة ، المبنية على الطهر ، والعفاف ، ووضع الأمور فى مواضعها السليمة .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر اليسر ورفع الحرج فى تشريعاته فقال : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُمْ بِهِ ولكن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (الأحزاب: ٥) .

أى : انسبوا - أيها المسلمون - الأبناء إلى آبائهم الشرعيين ، فإن لم تعرفوا آباءهم فخاطبوهم ونادوهم بلفظ : يا أخى أو يا مولاى . ومع كل ذلك فمن رحمتنا بكم أننا لم نجعل عليكم جناحا أو إثما ، فيما وقتعم فيه من خطأ غير مقصود بنسبتكم بعض الأبناء والأدعياء إلى غير آبائهم ، ولكننا نؤاخذكم ونعاقبكم فيما تعمدته قلوبكم من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم .

﴿ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ - وما زال واسع المغفرة والرحمة لمن يشاء عن عباده .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين : حرص شريعة الإسلام على إعطاء كل ذى حق حقه ، ومن مظاهر ذلك إبطال الظهار الذى كان يجعل المرأة محرمة

على الرجل ، ثم تبقى بعد ذلك معلقة ، لا هى مطلقة فتتزوج غير زوجها ، ولا هى زوجة فتحل له فشرع الإسلام كفارة الظهار إنصافا للمرأة ، وحرصا على كرامتها .

ومن مظاهر ذلك - أيضا - : إبطال عادة التبنى ، حتى ينتسب الأبناء إلى آبائهم الشرعيين ، وحتى تصير العلاقات بين الآباء والأبناء قائمة على الأسس الحقيقية والواقعية .

ولقد حذر الإسلام من دعوة الابن إلى غير أبيه تحذيرا شديدا ، ونفر من ذلك .

قال القرطبى : جاء فى الحديث الصحيح عن سعد بن أبى وقاص وأبى بكرةرضى ال عنهما له ، كلاهما قال : سَمعته أذناى ووعاه قلبى ، محمدا ﷺ يقول : «**من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام**» وفى حديث أبى ذر أنه سمع النبى ﷺ يقول: «**ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر**» .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم ﷺ ونحو أزواجه ، وما يجب للأقارب فيها بينهم ، فقال - تعالى - : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ . . .

١١- قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ.....

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾ (الأحزاب : ٢٦)

ختم - سبحانه - الحديث عن غزوة الأحزاب ، ببيان ما حل ببنى قريظة من عذاب مهين ، بسبب نقضهم لعهودهم فقال : ﴿ وَأَنزَلَ الذين ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الكتاب مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ .

والصياصى : جمع صيصة وهى كل ما يتحصن به من الحصون وغيرها . ومنه قيل لقرن الثور صيصة لأنه يدفع به عن نفسه .

أى : وبعد أن رحلت جيوش الأحزاب عنكم أيها المؤمنون - أنزل الله - تعالى - بقدرته الذين ظاهروهم وناصروهم عليكم ، وهم يهود بنى قريظة ، أنزلهم من حصونهم ، ومكنكم من رقابهم .

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ الشديد منكم ، بحيث صاروا مستسلمين لكم ، ونازلين على حكمكم .

﴿ فَرِيقاً ﴾ منهم ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ وهم الرجال . ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾ آخر وهم الذرية والنساء .

١٢ - صاحب القلب السليم...

﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الصافات)

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴾ (الصافات: ٨٣) يعود على نوح - عليه السلام - وشيعة الرجل : أعوانه وأنصاره وأتباعه ، وكل جماعة اجتمعوا على أمر واحد أو رأى واحد فهم شيعة ، والجمع شِيعَ مثل سِدرة وسِدَر .

قال القرطبى : الشيعة : الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يقود مع الكبار حتى يستوقد .

والمعنى : وإن من شيعة نوح لإبراهيم - عليهما السلام - لأنه تابعه فى الدعوة إلى الدين الحق ، وفى الصبر على الأذى من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة شريعته . . وهكذا جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -اللاحق منهم يؤيد السابق ، ويناصره فى دعوته التى جاء بها من عند ربه ، وإن اختلفت شرائعهم فى التفاصيل والجزئيات ، فهى متحدة فى الأصول والأركان .

وكان بين نوح وإبراهيم ، نبيان كريمان هما : هود ، وصالح - عليهما السلام - والظرف فى قوله - تعالى - : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الصافات: ٨٤) متعلق بمحذوف تقديره : اذكر أى: اذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - وقت أن جاء إبراهيم إلى ربه بقلب سليم من الشرك ومن غيره من الآفات كالحسد والغل والخديعة والرياء .

والمراد بمجيئه ربه بقلبه : إخلاص لقلبه لدعوة الحق ، واستعداده لبذل نفسه وكل شىء يملكه فى سبيل رضا ربه - عز وجل - .

فهذا التعبير يفيد الاستسلام المطلق لربه والسعى الحثيث فى كل ما يرضيه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى المجىء بقلبه ربه؟ قلت : معناه أنه أخلص لله قلبه ، وعرف ذلك منه فضرب المجىء مثلا لذلك .

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وقَوْمِهِ مَاذا تَعْبُدُونَ ﴾ (الصافات: ٨٥) شروع فى حكاية ما دار بينه وبين أبيه وقومه . والجملة بدل من الجملة السابقة عليها ، أو هى ظرف لقوله ﴿ سَلِيمٍ ﴾ أى : لقد كان إبراهيم - عليه السلام - سليم القلب ، نقى السريرة ، صادق الإيمان ، وقت أن جادل أباه وقومه قائلا لهم : أى شىء هذا الذى تعبدونه من دون الله - تعالى - ثم أضاف إلى هذا التوبيخ لهم توبيخا آخر فقال لهم : ﴿ أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ﴾ (الصافات: ٨٦) والإفك أسوأ الكذب . يقال أفِكَ فلان يأْفِكُ إفكا فهو أفوك . . إذا اشتد كذبه .

١٣ - أم على قلوب أقفالها...

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾(محمد: ٢٤)

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ﴾ والفاء للعطف على جملة محذوفة ، والاستفهام للإنكار والزجر . أى : أيعرضون عن كتاب الله - تعالى - فلا يتدبرونه مع أنه زاخر بالمواعظ والزواجر والأوامر والنواهى .

﴿ أَمْ علَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ أى : بل على قلوب هؤلاء المنافقين أقفالها التى حالت بينهم وبين التدبر والتفكر ، والأقفال : جمع قفل - بضم فسكون - وهو الآلة التى تقفل بها الأبواب وما يشبهها ، والمراد : التسجيل عليهم بأن قلوبهم مغلقة ، لا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر والنفاق .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟

قلت : أما التنكير ففيه وجهان : أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها فى ذلك . أو يراد على بعض القلوب وهى قلوب المنافقين . وأما إضافة الأقفال ، فلأنه يريد الأقفال المختصة بها ، وهى أقفال الكفر التى استغلقت فلا تنفتح .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّـهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ (النساء: ٨٢) وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها، وجوب التدبر والتفكر فى آيات القرآن الكريم، والعمل بما فيها من هدايات وإرشادات، وأوامر ونواه، وآداب وأحكام، لأن عدم الامتثال لذلك يؤدى إلى قسوة القلوب وضلال النفوس، كما هو الحال فى المنافقين والكافرين.

١٤ - فعلم ما فى قلوبهم...

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ (الفتح: ١٨)

﴿ لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾ هى الموطئة للقسم، وتسمى هذه البيعة ببيعة الرضوان.

والشجرة : كانت بالحديبية، وقد جلس ﷺ تحتها ليبايع أصحابه على الموت أو على عدم الفرار، فبايعوه على ذلك - ما عدا بعض المنافقين، وقد كان الناس بعد ذلك يترددون على تلك الشجرة ويصلون تحتها، ويدعون الله - تعالى - فأمر عمر - رضى الله عنه - بقطعها خشية الافتتان بها. أى : والله لقد رضى الله - تعالى - عن المؤمنين الذين بايعوك - أيها الرسول الكريم - تحت الشجرة، على الموت من أجل إعلاء كلمة ربهم.

وفى هذه الجملة أسمى وأعلى ما يتمناه إنسان، وهو رضا الله - تعالى - عنه ودخوله فى زمرة العباد الذين ظفروا بمغفرته - سبحانه - ورحمته.

قال الآلوسى - رحمه الله - : والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة هذه المبايعة. وقوله - سبحانه - : ﴿ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ متعلق ببايعونك.. وفى التقييد بذلك إشارة إلى مزيد وقع تلك المبايعة فى النفوس. ولذا استوجبت رضا الله - تعالى - الذى لا يعادله شىء، ويستتبع مالا يكاد يخطر على البال.

ويكفى فيما ترتب على ذلك ما أخرجه أحمد عن جابر رضى الله عنه، ومسلم عن أم بشر، رضى الله عنها، عن النبى ﷺ أنه قال: «**لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة**».

وصح برواية الشيخين وغيرهما فى أولئك المؤمنين من حديث جابر، أنه ﷺ قال لهم: «**أنتم خير أهل الأرض..**».

وقوله - تعالى - : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ بشارة أخرى لهؤلاء المؤمنين الصادقين.

أى : لقد رضى - سبحانه - عن الذين بايعوك تحت الشجرة - أيها الرسول الكريم - حيث علم ما فى قلوبهم من الصدق والإخلاص وإيثار الآخرة على الأولى، فأنزل السكينة والطمأنينة والأمان عليهم، ﴿ وَأَثَابَهُمْ﴾ أى : وأعطاهم ومنحهم فتحا قريبا، وهو فتح خيبر، الذى كان بعد صلح الحديبية بأقل من شهرين.

وقيل المراد به : فتح مكة، والأول أرجح، لأن فتح خيبر لم يكن فتح أقرب منه، ولأن المسلمين قد أصابوا من فتح خيبر غنائم كثيرة.

١٥ - فطبع على قلوبهم...

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾(المنافقون: ٣)

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا﴾ يعود إلى ما تقدم ذكره من الكذب، ومن الصد عن سبيل الله، ومن قبح الأقوال والأفعال.

أى : ذلك الذى ذكر من حالهم الذى دأبوا عليه من الكذب والخداع والصد عن سبيل الله... سببه أنهم ﴿ آمَنُواْ﴾ أى : نطقوا بكلمة الإسلام بألسنتهم دون أن يستقر الإيمان فى قلوبهم، ثم كفروا، أى : ثم ارتكسوا فى الكفر واستمروا عليه، وظهر منهم ما يدل على رسوخهم فيه ظهورا جليا، كقولهم : ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السفهآء﴾ (البقرة: ١٣) وكقولهم للمجاهدين : ﴿ لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر﴾ (التوبة: ٨١) ﴿ فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ﴾ (المنافقون: ٣) أى : فختم الله - تعالى - عليها بالكفر نتيجة إصرارهم عليه، فصاروا،

بحيث لا يصل إليها الإيمان .

﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أى : فهم لا يدركون حقيقة الإيمان أصلا ، ولا يشعرون به ، ولا يفهمون حقائقه لانطماس بصائرهم .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ مبتدأ ، وقوله: ﴿ بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ خبر : والباء للسببية .

و ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخى النسبى ، لأن إبطان الكفر مع إظهار الإيمان أعظم من الكفر الصريح ، وأشد ضررا وقبحا .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ، فما معنى قوله : ﴿ بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ ؟ .

قلت : فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : آمنوا : أى نطقوا بكلمة الشهادة ، وفعلوا كما يفعل من يدخل فى الإسلام ، ثم كفروا . أى : ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع الله عليه المؤمنين من قولهم : إن كان ما يقوله محمد ﷺ حقا فنحن حمي .

والثانى : آمنوا ، أى : نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام ، كقوله – تعالى – : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الذين آمَنُواْ قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قالوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ (البقرة: ١٤) .

الثالث : أن يراد أهل الردة منهم .

١٦- إلا من أكره...

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(النحل: ١٠٦)

﴿ مَن كَفَرَ بالله مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ روايات منها قول الآلوسى : " روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه : ياسرا ، وسمية ، على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين . . . ثم قتلوها وقتلوا ياسرا ، وهما أول شهيدين فى الإسلام . وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما

أكرهوه عليه ، فقيل: يارسول الله : إن عمارا قد كفر . فقال ﷺ : «**كلا، إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه**» .

فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكى ، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال له : «**مالك، إن عادوا فعد لهم بما قلت**» . وفى رواية أنه قال له : «**كيف تجد قلبك؟**» قال: مطمئن بالإيمان قال ﷺ: «**إن عادوا فعد**» . فنزلت هذه الآية .

ثم قال الآلوسى : والآية دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه ، وإن كان الأفضل أن يتجنب عن ذلك إعزازا للدين ولو تيقن القتل ، كما فعل ياسر وسمية ، وليس ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة ، بل هو كالقتل فى الغزو كما صرحوا به .

و (من) فى قوله: ﴿ **مَن كَفَرَ بالله** ﴾ مبتدأ أو شرطية ، والخبر أو جواب الشرط محذوف والتقدير : فعليه غضب من الله ، أو فله عذاب شديد ، ويدل عليهما قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ **ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً** ﴾ .

والمعنى : من كفر بالله - تعالى - من بعد إيمانه بوحدانيته - سبحانه - وبصدق رسوله ﷺ فإنه بسبب هذا الكفر يكون قد ضل ضلالا بعيدا ، يستحق من أجله العذاب المهين .

وقوله : ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ استثناء متصل من الجملة السابقة أى : إلا من أكره على النطق بكلمة الكفر ، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان ، ثابت عليه ، متمكن منه . . فإنه فى هذه الحالة لا يكون ممن يستحقون عقوبة المرتد .

قال بعض العلماء : وأما قوله : ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ فهو استثناء متصل من " مَنْ " لأن الكفر أعم من أن يكون اعتقادا فقط ، أو قولا فقط ، أو اعتقادا وقولا . . . وأصل الاطمئنان سكون بعد انزعاج ، والمراد به هنا : السكون والثبات على الإيمان بعد الانزعاج الحاصل بسبب الإكراه .

وقوله : ﴿ **ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (النحل: ١٠٦) بيان لسوء مصير من استحب الكفر على الإيمان باختياره ورضاه .

و" من " فى قوله ﴿ **مَّن شَرَحَ** ﴾ شرطية ، وجوابها ﴿ **فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ الله** ﴾ .

أى : حكم من تلفظ بكلمة الكفر مكرها أنه لا يعتبر مرتدا ، ولكن حكم من طابت نفوسهم بالكفر ، وانشرحت له صدورهم ، واعتقدوا صحته ، أنهم عليهم من الله - تعالى - غضب شديد لا يعلم مقداره إلا هو ، ولهم يوم القيامة عذاب عظيم الهول ، يتناسب مع عظيم جرمهم .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأخبار التى حكت ما تعرض له المسلمون الأولون من فتن وآلام . فقال ما ملخصه : ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال - رضى الله عنه - يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ (النحل: ١٠٧) بيان للأسباب التى جعلتهم محل غضب الله ونقمته .

واسم الإشارة " ذلك " يعود إلى كفرهم بعد إيمانهم ، أو إلى ما توعدهم الله - تعالى - به من غضب عليهم ، وعذاب عظيم لهم .

أى : ذلك الذى جعلهم يرتدون عن دينهم ، ويكونون محل غضب الله ونقمته ، من أسبابه أنهم آثروا الحياة الدنيا وشهواتها على الآخرة وما فيها من ثواب .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ - تعالى - ﴿ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (النحل: ١٠٧) إلى الصراط المستقيم ، لأنهم حين زاغوا عن الحق أزاغ الله قلوبهم .

ثم أضاف - سبحانه - إلى رذائلهم رذيلة أخرى فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (النحل: ١٠٨) .

والطبع : الختم والوسم بطابع ونحوه على الشىء ، لكى لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه . أى : أولئك الذين شرحوا صدورهم بالكفر ، وطابوا به نفسا ، قد طبع الله تعالى على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فصارت ممنوعة من وصول الحق

إليها ، وعاجزة عن الانتفاع به ، وأولئك هم الكاملون فى الغفلة والبلاهة ، إذ لاغفلة أشد من غفلة المعرض عن عاقبة أمره ، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية .

١٧ - وختم على سمعه وقلبه....

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٣) .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ للتعجب من حال هؤلاء المشركين ، ولتسلية النبى ﷺ عما أصابه منهم من أذى .

والمراد بهواه : ما يستحسنه من تصرفات ، حتى ولو كانت تلك التصرفات فى نهاية القبح والشناعة والجهالة .

والمعنى : انظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - فى أحوال هؤلاء الكافرين فإنك لن ترى جهالة كجهالاتهم ، لأنهم إذا حسن لهم هواهم شيئا اتخذوه إلها لهم ، مهما كان قبح تصرفهم ، وانحطاط تفكيرهم ، وخضعوا له كما يخضع العابد لمعبوده .

قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا . فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول .

وقوله : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أى : وأضل الله - تعالى - هذا الشقى ، بأن خلق فيه الضلالة ، على علم منه - سبحانه - بأن هذا الشقى أهل لذلك لاستحبابه العمى على الهدى .

فيكون قوله ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ حال من الفاعل ، أى أضله - سبحانه - حالة كونه عالما بأنه من أهل الضلال .

ويصح أن يكون حالا من المفعول ، أى : وأضل الله - تعالى - هذا الشقى ، والحال أن هذا الشقى عالم بطريق الإيمان ، ولكنه استحب الغى على الرشد .

وقوله ﴿ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ والختم : الوسم بطابع ونحوه ، مأخوذ من وضع

الخاتم على الشيء ، وطبعه فيه للاستيثاق ، لكى لا يخرج منهما بداخله ولا يدخله ما هو خارج عنه .

أى : وطبع على سمعه وقلبه ، فجعله لا يسمع سماع تدبر وانتفاع ، ولا يفقه ما فيه هدايته ورشده .

﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ أى : وجعل على بصره غطاء ، يحجب عنه الرؤية السليمة للأشياء وأصل الغشاوة ما يغطى به الشئ ، من غشاه إذا غطاه .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ﴾ للإنكار والنفى .

أى : لا أحد يستطيع أن يهدى هذا الإنسان الذى اتخذ إلهه هواه من بعد أن أضله الله - عز وجل - .

﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : أفلا تتفكرون وتتأملون فيما سقت لكم من مواعظ وعبر ، تفكرا يهديكم إلى الرشد ، ويبعثكم على الإيمان .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من المشركين ، وتعجيب من أحوالهم التى بلغت الغاية فى الجهالة والضلالة . ودعوة لهم إلى التذكير والاعتبار ، لأن ذلك ينقلهم من الكفر إلى الإيمان .

١٨ - وجاء بقلب منيب...

﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ (ق: ٣٣) .

﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ (ق: ٣٢) يعود إلى الجنة التى قربت لهم . . والجملة على تقدير القول ، أى : قربت الجنة ممن هم أهلها ، ويقال لهم عند دخولها : هذا الذى ترونه من نعيم ، هو ما سبق أن وعد الله - تعالى - به كل ﴿ أَوَّابٍ ﴾ أى رجاع إليه بالتوبة ﴿ حَفِيظٍ ﴾ أى : حافظ لحدوده وأوامره ونواهيه بحيث لا يتجاوزها ، وإنما ينفذها ، ويقف عندها .

﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أى : من خاف مقام ربه دون أن يراه أو يطلع عليه ،

والجملة بدل أو عطف بيان من قوله : ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ وقوله : ﴿ بالْغَيْبِ ﴾ متعلق بمحذوف حال من الرحمن ، أى : خَشِيَه وهو غائب عنه لا يراه ولا يشاهده .

﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ أى : وجاء ربه يوم القيامة بقلب راجع إليه ، مخلص فى طاعته ، مقبل على عبادته . .

هؤلاء الذين يفعلون ذلك فى دنياهم ، يقال لهم يوم الحساب على سبيل التبشير والتكريم : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ﴾ (ق: ٣٤) أى ادخلوا الجنة التى وعدكم الله إياها بسلام وأمان واطمئنان .

﴿ ذَلِكَ ﴾ اليوم وهو يوم الثواب والعطاء الجزيل من الله - تعالى - ﴿ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ الذى لا انتهاء له ، ولا موت بعده .

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ (ق: ٣٥) أى : لهؤلاء المتقين ما يشاءون ويشتهون . . فى الجنة .

﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (ق: ٣٥) أى : وعدنا - فضلا عن كل هذا النعيم الذى يرفلون فيه - المزيد منه ، مما لم يخطر لهم على بال ، ولم تره أعينهم قبل ذلك .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ كقوله - تعالى - : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ (يونس: ٢٦) وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان ، أنها النظر إلى وجه الله الكريم .

١٩ - لمن كان له قلب....

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾(ق: ٣٧) .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الإهلاك للأمم المكذبة السابقة ﴿ لذكرى ﴾ أى : لتذكرة وعبرة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أى : لمن كان له قلب يعى ما يسمع ، ويعقل ما يوجه إليه ، ويعمل بمقتضى هذا التوجيه الحكيم . ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أى : فيما سقناه عبرة وعظة لمن كان له قلب يعى الحقائق ، ولمن أصغى إلى ما يلقى إليه من إرشادات ، وهو

حاضر الذهن صادق العزم لتنفيذ ما جاءه من الحق .

قال صاحب الكشاف : ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أى قلب واع ، لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له ، وإلقاء السمع : الإصغاء . ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أى : حاضر بفطنته ، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب . . أو هو مؤمن شاهد على صحته ، وأنه وحى الله .

٢٠- ومن يؤمن بالله يهد قلبه...

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١١) .

﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى : ومن يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا يهد قلبه إلى الصبر الجميل ، وإلى الاستسلام لقضائه - سبحانه - لأن إيمانه الصادق يجعله يعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، والله - تعالى - عليم بكل شىء ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أى : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضائه - تعالى - هدى الله قلبه ، وعوضه عما فاته من الدنيا .

وفى الحديث: «**عجبا للمؤمن، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»[1] .

ومن هذه الآيات الكريمات نفهم أن القلب هو المخاطب في القرآن ودل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الصافات: ٨٤) .

وعن قوله تعالى: ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: قال ابن عباس رضى الله عنه: يعني شهادة أن لا إله إلا الله .

---

(١) متفق عليه .

وقال محمد بن سيرين: يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور .

وقال الحسن: سليم يعني من الشرك .

وأما عروة فقال: لا يكون قلباً لعانا [١] .

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ ﴾(الحج: ٤٦) .

يعني: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ ﴾: فإنها لا تعمى أبصارهم أن يبصروا بها الأشخاص ويرونها بل يبصرون ذلك بأبصارهم ولكن تعمى قلوبهم التي في صدورهم عن معرفة الحق والانتصار له .

وقيل ﴿وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ والقلوب لا تكون إلا في الصدور ، توكيداً للكلام[٢] ، كما قيل: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٧) .

وكما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار: أن مالك بن دينار حَدَّث قال: أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام أن يا موسى اتخذ نعلين من حديد وعصا ثم سح في الأرض ثم اطلب الآثار والعِبَر حتى يتخَرَّق النعلان وتنكسر العصا . [٣]

فالله يؤاخذ الإنسان بما يتعمد قلبه ويقصد وذلك مُبَيَّن في آيات ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾(البقرة: ٢٢٥) .

وقال: ﴿وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (الأحزاب: ٥) .

وهذه القلوب تنفتح وتنشرح بفعل الطاعات والبعد عن المعاصي والسيئات ولكن إذا

---

(١) ابن كثير ، بتصرف قليل .
(٢) الطبري ، بتصرف .
(٣) ابن كثير .

انغمست في معاصي ربها وتركت أمره وما زجر القرآن عن معصية الله فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة فهي القلوب المقفلة والله المستعان .

قال تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد: ٢٤) .

﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾: أي بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون . وهذا يرد على القدرية والإمامية مذهبهم ، وقيل أن عليها أقفالا كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها وأصل القِفل أو القَفل معناها اليبس والصلابة ويقال لما يَيْبَس من الشجر: القَفْل . [١]

وقد ورد أيضاً أنه: حَدَّث خالد بن معدان قال: ما من آدمي إلا وله أربعة أعين ؛ عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشته ، وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله من الغيب ، فإذا أراد الله بعبد خيراً أبصرت عيناه الذين في قلبه ، وإذا أراد به غير ذلك طمس عليهما [٢] .

* * * * *

(١) القرطبي ، بتصرف .
(٢) القرطبي .

obeikandl.com

المبحث الثاني:

حياة القلب وموته

فالحياة حياة القلب، والموت موت القلب، والمرض مرض القلب.

ولذلك نجد آيات عظيمة وكثيرة تتحدث عن أعمال القلوب، وأعظم هذه الأعمال بلا ريب هو الإيمان الذي هو الدين كله، ونحن الذين خاطبنا الله تبارك وتعالى باسم الإيمان حيث قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[1] والمقصود به: الذين استجابوا لله تبارك وتعالى، وأذعنوا ظاهراً وباطناً، قولاً وعملاً، فالإيمان عند أهل السنة والجماعة هو - كما تعلمون - (قول وعمل).

فالقول: قولان. والعمل عملان:

فالقول: قول القلب وهو: إقراره وتصديقه، وقول اللسان وهو: إقراره وتصديقه، أي: نطقه.

والعمل عملان: عمل القلب، وعمل الجوارح.

فلا أحد من المسلمين يجهل أنه لا بد من عمل الجوارح كالصلاة والصيام والزكاة وما أشبه ذلك، والأوضح عند المسلمين عامة الإقرار باللسان أي: (قول اللسان)، لكن ما يتعلق بالقلب - وهو الأهم - قد يخفى على كثير من المسلمين.

ولهذا نجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخاطبنا بذلك ويبين لنا أهمية القلب فمثلاً: لما جاءت الأعراب، وقالوا - كما حكى الله عنهم -: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[2] فالأعراب أسلموا بمعنى أنه: حصل منهم الانقياد الظاهر، وأصل الإقرار والتصديق الذي يكون بالقلب، ولكن لم يدخل الإيمان في قلوبهم.

فالقلب لم يصل بعد إلى أن يكون قد آمن حقاً، وهذه درجة لا يجوز لأحد أن يدعيها، فالإيمان في الحقيقة هو إيمان القلب، ولهذا قال: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ

---

(١) البقرة: ١٠٤.

(٢) الحجرات: ١٤.

فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[١] وذلك في مخاطبة المؤمنين، فهكذا يكون تزيينه في القلب، ودخوله فيه، أما المؤمنون السابقون فقد زينه في قلوبهم، وأما الأعراب فهو لما يدخل قلوبهم بعد، مع أن الجميع مع رسول الله ﷺ، مثلما نكون نحن الآن في الصلاة - مثلاً - في المسجد، وفي الجهاد، فكلنا في مسجد واحد وفي معركة واحدة، لكن بين هذا وذاك من التفاوت مثل ما بين السماء والأرض، بقدر الإيمان وبقدر أعمال القلوب من الإخلاص والخشوع والإنابة والإخبات وغير ذلك من أعمال القلب.

أما أعمال الجوارح فإنها لا تكفي من دون أعمال القلب كما حصل في عهد الرسول ﷺ، الرجل الذي كان يبلو بلاءً شديداً ضد المشركين، ومع ذلك يقول الرسول ﷺ: «**هو من أهل النار**»، ربما يكون ذلك مع وجود من هو من أهل الإيمان والتقوى ومن أهل الجنة في الجيش، ولم يبل ذلك البلاء ولم يقتل مشركاً واحداً ولم يَصُلْ ولم يجل في المعركة، وكذلك في الإنفاق والصدقة والإحسان وسائر أعمال الخير التي إنما نريد أن نعبد ونتقرب إلى الله تبارك وتعالى بها.

إذاً: الإيمان هو: إيمان القلب، والتقوى - أيضاً - هي: تقوى القلب، كما قال الله: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[٢] ويقول ﷺ: «**التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ**»[٣]، فمحل التقوى هو القلب، والتقوى تشمل كل أعمال الخير والبر والصلاح، ولاسيما إذا أفردت، وقد بحث هذه المسألة شَيْخ الإسْلام في أول كتاب الإيمان عند كلامه على لفظ البر ولفظ التقوى، وأمثالها من الألفاظ التي تأتي في القرآن والتي إذا جاءت فهي تشمل كل أعمال الإيمان الظاهر منها والباطن.

* * * * *

(١) الحجرات: ٧.
(٢) الحج: ٣٢.
(٣) رواه مسلم، وأحمد.

المبحث الثالث:

وجـــل القلـــوب

حياة القلوب لها أعمال ولها صفات وأحوال ، والأعمال القلبية كثيرة جداً منها:

﴿ وَالَّـــذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [١] وفي قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [٢].

قال الحسن: إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة ، وقال لقمان لابنه: يا بني ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته وخف الله خوفا لا يؤيسك من رحمته يقول إني أحسن الظن بربي كذب ولو أحسن الظن بربه لأحسن العمل .

ومدح الله تعالى أهل الخوف وأثنى عليهم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُـــمْ لَهَـــا سَابِقُونَ ﴾ [٣] هذه الآيات من سورة المؤمنون آيات عظيمة ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وسياقها يبين ما جاء في تفسيرها ، وأنه تفسير حق ودلالته صحيحة .

وسياق الآيات هذه في بيان المحسنين السابقين كما ذكر في آخرها: ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِـــي الْخَيْـــرَاتِ وَهُـــمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [٤] فالذي يسارع في الخيرات ويسابق هو في درجة الإحسان والتقوى ، وأما حال الفريق الآخر فقال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِـــينٍ ﴾ [٥] وبين شعورهم ونظرتهم واعتقادهم فيما ينعم الله تبارك وتعالى به عليهم: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [٦] فالله

---

(١) المؤمنون: ٦٠ .
(٢) الأنفال: ٢ .
(٣) المؤمنون: ٥٧ - ٦١ .
(٤) المؤمنون: ٦١ .
(٥) المؤمنون: ٥٤ .
(٦) المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦ .

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر صنفين: صنف معرض عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وغير مؤمن به ، فهو في غمرة ولهو ، وعندما يرزق ويعطى يظن أنه مسارعة من الله تبارك وتعالى له بالخيرات لفضله وخيره وصلاحه .

والصنف الآخر: هم المؤمنون .

وعندما يذكر الله تبارك وتعالى أحوال أهل الكفر مقابل أحوال أهل الإيمان فإنه يذكر أعلى صفاتهم ، فعندما يذكر الكفار يذكر أعلى درجاتهم في الكفر ، وكذلك عندما يذكر صفات أهل الإيمان يذكر أعلى درجاتهم في الإيمان ، ولا يذكر ضعاف الإيمان في هذا المقام المقابل للكفر ، إنما يذكر في مقابل الكفار أهل الإيمان وما هم فيه من الفضل والسابقة والمسارعة والخير ، وفي هذا دليل على أن الآيات هى في هؤلاء ، ولذلك ما جاء فيها من الحديث ؛ ولكن التفسير صحيح قالت: قلت يا رسول الله ، ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَة ﴾[1] أهو الذي يزنى ويشرب الخمر ويسرق؟ ، فكان مقصودها - رضى الله عنها - أن هؤلاء العباد من إيمانهم وفضلهم وخيرهم إذا أتوا منكراً أو فعلوا فاحشة فإنهم يفعلونها وهم خائفون ؛ لكن الأمر أجل وأعظم من ذلك ، فقال النبي ﷺ : «**لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه**»[2] فهم يؤتون ويعطون ويبذلون من القربات والطاعات وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، فلسان حاله يقول: نعم صمت وصليت وحججت واعتمرت وأحسنت إلى الفقراء والمساكين ، وحفظت لسانى عن غيبة إخوانى المسلمين ، وحفظت يدي عن حقوقهم ، لكنى والله لا أدري أتقبل منى هذه العبادة أم لا ، وربما كان في الحج من الرفث واللغو والفسوق والجدال أو الرياء ما أحبط الحج ، فلربما كان في الصلاة والزكاة ما يحبطهما ، وربما انتفت بعض الشروط أو بعض الواجبات ، أو فسدت النية فلم تقبل هذه الطاعة ، فالمؤمن يعمل الطاعة وهو يخاف أن لا تقبل منه .

فهذه هي الدرجة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن ، لكن الواقع من كثير من الناس

---

(١) المؤمنون: ٦٠ .

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح في (٨/ ٢٩٩) .

أنهم يعملون المعاصي، ويرتكبون المحرمات ولا توجل قلوبهم، ولا يخافون من الله، والله تعالى يقول: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾[1] فالإنسان إذا عمل طاعةً أو معصيةً فعليه أن يتقي الله، ويشعر أنه راجع إلى الله، فإن كان ما عمله طاعةً فيخاف ألا تقبل وإن كان ما عمله معصيةً أو منكراً أو فاحشةً، فهو أحرى وأجدر أن يخاف الله، فليتب وينزجر عن معصية الله تبارك وتعالى.

* * * * *

(١) البقرة: ٢٨١.

obeikandl.com

المبحث الرابع:

صـــلاح القلـــوب

إن الله جل ذكره بعث الرسل وأنزل الكتب لإصلاح القلوب وتطهيرها، وتزكيتها وتطييبها، كيف لا؟

وبالقلب يعرف العبد ربه فيتعرف على أسمائه وصفاته، وبالقلب يعلم العبد أمر الله ونهيه، وبالقلب يحب العبد ربه ويخافه ويرجوه، وبالقلب يفلح العبد وينجو يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] أي أتى الله بقلب سليم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خبره ونبأه.

وبالقلب يا عباد الله يقطع سفر الآخرة فإن السير إلى الله تعالى سيرُ القلوب لا سيرُ الأبدان.

قطـــع المـــسافة بالقلـــوب إلـــيه لا ::: بالـــسير فـــوق مقاعـــد الـــركبان

قال ابن رجب رحمه الله: فأفضل الناس من سلك طريق النبي ﷺ وخواص أصحابه في الاجتهاد في الأحوال القلبية فإن سفر الآخرة يقطع بسير القلوب لا بسير الأبدان.

والقلب يا عباد الله هو موضع نظر الله سبحانه وتعالى من عبده، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[2].

فيا لله العجب، من أقوام صرفوا جلّ اهتمامهم في تحسين ظواهرهم، وغفلوا عن قلوبهم وأفئدتهم، وما أصدق ما قاله ابن القيم رحمه الله:

فالفـضل عـند الله لـيس بـصورة ال ::: أعمـــال بـــل بحقائـــق الإيمـــان

وبصلاح القلب تصلح الأجساد، ففي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة برقم (٢٥٦٤).

مرفوعاً: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[١].

يا من ترجون الله والدار الآخرة، عليكم بحفظ قلوبكم وإصلاحها وحسن النظر فيها وبذل المجهود في استقامتها، واعلموا أنه لن يتم لكم ما ترجونه من صلاح قلوبكم حتى تسلم قلوبكم من أربعة أمور:

الأمر الأول: أن تسلم من الشرك صغيره وكبيره فإنه من أعظم مفسدات القلوب، قال ابن القيم رحمه الله: ولا صلاح له - أي للقلب - إلا بتوجيه محبته وعبادته وخوفه ورجائه.

الأمر الثاني: أن تسلم من البدعة ومخالفة السنة، فإن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار فإذا امتلأ القلب بالبدع أظلم وإذا أظلم مرض ولم يصح.

الأمر الثالث: أن تسلم من الشبهات التي تزيغها وتحملها على اتباع الهوى والتكذيب بالحق.

الأمر الرابع: أن تسلم من الشهوات التي تمرضها وتفسدها.

أيها المؤمنون إن السلامة من هذه الآفات الكبرى، لا تتأتى إلا بأسباب لابد من الأخذ بها ومقدمات لابد من تحصيلها.

فمن أسباب صلاح القلوب واستقامتها الأخذ بالقرآن العظيم تلاوة وحفظاً وتدبراً وتعلماً فإن الله سبحانه وتعالى أنزله شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

فالقرآن أبلغ موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهو أنفع الأدوية لما في الصدور من أمراض الشبهات والشهوات، قال ابن القيم رحمه الله: (جماع أمراض

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان من حديث النعمان بن بشير (٥٢) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩).
(٢) يونس: ٥٧.

القلوب هي أمراض الشبهات والشهوات والقرآن شفاء للنوعين) . فأقبلوا على كتاب الله يا عباد الله فإنه لا صلاح لكم ولا سعادة إلا بالتمسك به فاعتصموا به ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم .

ومن أسباب صلاح القلوب واستقامتها إعمارها بمحبة الله تعالى فلا فلاح ولا صلاح ولا استقامة ولا لذة ولا طيب إلا بمحبة الله تعالى ، قال النبي ﷺ : «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَ إليه مما سواهما**»[١] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فالمحبة أعظم واجبات الدين وأكثر أصوله وأجل قواعده بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين) . فاجتهدوا يا عباد الله في تحصيل محبة الله تعالى واعلموا أن طريقها الأكبر أداء الفرائض والواجبات والاجتهاد في النوافل والمستحبات ، قال الله تعالى في الحديث الإلهي: «**وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه**»[٢] .

ومن أسباب صلاح القلوب وتطييبها ذكر الله تعالى: ﴿ **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾[٣] . وقال النبي ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت**»[٤] .

فذكر الله تعالى أيها المؤمنون جلاء القلوب فإن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤه ذكر الله تعالى فأكثروا أيها المؤمنون من ذكر الله تعالى في جميع الأوقات لا سيما في أدبار الصلوات وفي الصباح والمساء وغير ذلك من المناسبات فإنها من أعظم ما يصلح القلوب .

وإن من أسباب صلاح القلوب تطهيرها من الآفات والأمراض التي تفسدها وتعطبها كالحسد والغل والعجب والرياء والشح فإن هذه الأمراض تفسد القلب وتصرفه عن صحته واستقامته فاحرصوا بارك الله فيكم على تطهير قلوبكم من هذه الآفات فإنه لا نجاة للقلب

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه برقم (١٦) ومسلم في الإيمان برقم ٤٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم (٦٥٠٢) .

(٣) الرعد: ٢٨ .

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه برقم (٦٤٠٧) .

إلا بالنجاة منها .

و إن من أهم أسباب صلاح القلوب دعاء الله سبحانه وتعالى وسؤاله إصلاح القلب فإن سؤال ذلك من أنفع الدعاء ، ومن دعاء النبي ﷺ : «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»[١] ومن دعائه أيضاً: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[٢] فأكثروا من سؤال الله التثبيت وإصلاح القلوب .

وإن الذنوب فساد القلوب وخرابها ، ففي الصحيح قال النبي ﷺ: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير القلوب على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه**»[٣] فبين هذا الحديث أثر الذنوب على القلب وأنه يطمسها ويختم عليها فلا تعرف معروف ولا تنكر منكرا .

وفي الحديث أيضاً أثر التوبة في تصفية القلب وتطهيره وتنقيته ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (القلب إذا تاب من الذنوب كان ذلك استفراغاً من تخليطاته حيث خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه) وقال ابن القيم رحمه الله: (فإذا عزمت التوبة وصحت ونشأت من صميم القلب أحرقت ما مرت عليه من السيئات حتى كأنها لم تكن فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له) .

فأكثروا أيها المؤمنون من التوبة والاستغفار فإن التوبة تجلو القلب وتزيل عنه أوضار المعاصي والسيئات ، ففي الصحيح من حديث الأغر المزني أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليران على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[٤] .

---

(١) أخرجه مسلم في القدر من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه برقم (٢٦٥٤) .
(٢) أخرجه الترمذي في القدر من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه برقم (٢١٤٠) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان من حديث حذيفة رضي الله عنه برقم (١٤٤) .
(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم (٢٧٠٢) .

و إن من أسباب استقامة القلب وصلاحه تعظيم الله تعالى الذي ينشأ عنه تعظيم أمره ونهيه، قال الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[١]. وشعائر الله هي أوامره ونواهيه فعظموا الله سبحانه وتعالى يصلح لكم قلوبكم ويغفر لكم ذنوبكم.

ومن أسباب صلاح القلوب وتطييبها الحرص على البعد عن أسباب فسادها وخرابها قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾[٢]. قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: (وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر فإنه أسلم له وأطهر لقلبه)[٣].

فكل شيء يفسد قلبك أيها العبد فاحرص على تجنبه والبعد عنه فإن قلبك أعظم ما تملكه وإذا فسد عليك فسدت عليك حياتك وآخرتك.

وصفة لإصلاح القلوب:

جاء رجل للإمام سفيان الثوري، فقال له: يا إمام إنّي أجد ألم البعد عن الله فما العمل؟

فقال له سفيان: يا هذا!! عليك بعروق الإخلاص، وورق الصبر، وعصير التواضع، ضع ذلك في إناء التقوى، وصب عليه ماء الخشية، وأوقد عليه نار الحزن على المعصية، وصفه بمصفاة المراقبة وتناوله بكف الصدق، وأشربه من كأس الاستغفار وتمضمض بالورع وابعد نفسك عن الحرص والطمع تشفى من مرض قلبك بإذن الله.

* * * * *

(١) الحج: ٣٢.
(٢) الأحزاب: ٥٣.
(٣) التفسير ٤/١٦٦.

المبحث الخامس:

اقترب من الله عز وجل وابتعد عن الشيطان

نصائح:

١- الصحبة الصالحة: بادر وثابر وحاول إلى أن تتخذ أخداناً ورفقاء ناصحين، يبيِّنون لك طريق الهداية، ويحفظونك من سبل الضلالة، ولك أن تتأمَّل قوله تعالى: ﴿ الأخلاَّء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلاَّ المتقين﴾[١].

فالناس يوم القيامة في عداوات ومشاحنات إلاَّ من تحابُّوا في ذات الله، ولأجل الله، وكانوا ناصحين وصادقين في صحبتهم، وقد قيل: صديقك من صَدَقَك لا من صدَّقك!

أمَّا أصدقاء السوء ففرَّ منهم فرارك من الأسد، وأعرض عنهم خصوصاً في بداية توبتك حتَّى لا يستجرُّوك وأنت في بداية طريق التوبة إلى ما حرَّم الله، وقد قال - تعالى: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾[٢].

٢- الانخراط في مشاريع خيريَّة سواء أكانت إغاثيَّة أو دعويَّة، والاندماج في تلك المشروعات الحيويَّة التي تحيي القلوب، فإنَّ هذا من صفة المؤمن العامل لدينه، ويا لله ما أحسن وأروع كلمة مالك بن دينار حيث قال: (إنَّ صدور المؤمنين تغلي بأعمال البر، وإنَّ صدور الفجَّار تغلي بأعمال الفجور، والله - تعالى - يرى همومكم فانظروا ما همومكم رحمكم الله)[٣].

إنَّ هذه الأعمال الخيرية تجعل النفس قريبة من الناس بالإحسان إليهم،

---

(١) الزخرف: ٦٧.
(٢) الأنعام: ٧٠.
(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٤٥١).

والعمل على قضاء حوائجهم، وقد جاء في الحديث: «**لأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهراً**»(١).

٣- زيارة المستشفيات وخصوصاً المستشفيات المعروفة بأنَّ أكثر من فيها مرضى مزمنون، ومرضهم لا يبرأ، فستعلم كيف هي نعمة الله عليك، وستشعر قطعاً بفضله ومنَّته عليك فتزداد شكراً لله تعالى.

٤- زيارة المقابر وتذكر الآخرة، وقد كان بعض السلف الصالح يضع نفسه في قبر ويتخيَّل أنَّه مكان ذلك الرجل المقبور، وكيف أنَّ الديدان تحتوشه يميناً ويساراً وتنهش من جسمه الطري، فيستعد للقاء الله، ويقبل على الله كثيراً، ولهذا فقد قال ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنَّها تذكركم الآخرة**»(٢).

٥- قراءة قصص التائبين إلى الله والعائدين إلى حياض الإيمان، ففيها ما فيها من تقوية النفس، ومعرفة سعة رحمة الله، وعلو الهمَّة في الازدياد من الطَّاعة والالتجاء إلى الله.

٦- قراءة سير الصالحين وعلماء المسلمين ومثال ذلك الاطِّلاع على سير الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم وغيرهم من الأئمَّة مثل عبد الله بن المبارك، والفضيل بن عياض، وسفيان الثوري، والأوزاعي، وابن تيميَّة.

٧- حاول بقدر الإمكان حين تعصي الله تعالى، تقوم وتصلِّي صلاة التوبة، أو على الأقل تصلي ركعتين ستجد حينها طمأنينة عجيبة، وإلحاق تلك المعصية بالاستغفار والتوبة.

٨- لا تنسى الأذكار عموماً، وأذكار الصلاة والصباح والمساء والنوم ودخول الخلاء خصوصاً.

---

(١) أخرجه الطبراني وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع برقم(١٧٦).
(٢) أخرجه أحمد بسند جيد.

٩- الارتباط بحلقات تحفيظ القرآن، والبدء بمشروع حفظ القرآن، وكفاك فخراً وبشارة بأن تكون من خيار هذه الأمَّة حيث قال ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[١].

١٠- اجلس جلسات إيمانيَّة مع أصحابك، واحضر دروس العلماء ومحاضرات الدعاة والمربين، وقد كان معاذ بن جبل يقول لأصحابه: (تعالوا بنا نؤمن ساعة)[٢].

١١- ما أجمل أن تخصص لك عبادة لا يعلم بها أحد إلاَّ الله، وقد كان يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: ينبغي أن يكون للعبد خبيئة لا يعلم بها أحد إلاَّ الله فإمَّا أن تصوم الاثنين والخميس، أو تصوم الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر، أو تقوم الليل ولو مرَّة في الأسبوع، أو تصلِّي صلاة الضحى.

١٢- حاول قدر الإمكان أن تبتعد عن أماكن الشبهات، ومواطن الإثارة للشهوات، من صديق أو مذياع أو تلفاز أو نادي، خصوصاً إن علمت أنَّك قريب من المعصية في هذه الحالة.

١٣- لا بأس بأن تجعل لك جلسات محاسبة تحاسب فيها نفسك، ولا بأس بأن تضع لك جدولاً تكتب فيه كم من معصية عصيت الله تعالى فيها، وهل أدَّيت جميع الطاعات، حتَّى تعرف قدر معاصيك، وتحاسب نفسك عليها، وتزداد من الطاعات.

١٤- من الحسن أنَّ يكون لك جلسات تفكُّر في مخلوقات الله، والتدبر في عجيب وجميل صنع الله في مخلوقاته، وفي هذا الكون الفسيح، وأنت إذا فعلت ذلك فستدرك كيف هي قوَّة الإيمان التي تشعر بها في قلبك، وتكون بذلك متأسِّياً

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان بسند صحيح.

بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

١٥- قراءة الكتب التي تتحدَّث عن الإعجاز العلمي في القرآن وفي الكون الفسيح وفي خلق الإنسان، ومن أكثر من أبدع في ذلك الدكتور مصطفى محمود والدكتور زغلول النجار و . . .

١٦- اجعل العمل الذي تعمل فيه بمرضاة الله، واجعله طريقاً للعبادة وليس مجرد مصدراً للرزق، واستشعر فيه الأجر من الله.

١٧- اعمل مع جماعة صالحة فإنَّ العمل في جماعة يعطيك زاداً قوياً في الطاعة، وأما أن تعمل لوحدك فإنَّ هذا قد يؤدِّي بك للفتور والارتخاء، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**إنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»[2].

* * * * *

(١) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي.

المبحث السادس:

علامات القلب السليم

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [١].

قال ابن القيم - رحمه الله - في علامات القلب السليم حتى نعلم هل قلوبنا من تلك القلوب التي تنطبق عليها تلك العلامات؛ فنحمد الله، ونسأله حسن الخاتمة، والمزيد من فضله، أم أننا على العكس من ذلك فنسأله أن يرزقنا قلوباً فإنه لا قلوب لنا.

فمن علامات القلب السليم:

١- أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة ويحل فيها، حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، وقد جاء إلى هذه الدار غريباً يأخذ منها حاجته، ويعود إلى وطنه، كما قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: «**كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل**»[٢].

٢- ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له ولا فلاح، ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف، فذكره قوته، وغذاؤه محبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، وقد قال بعض العارفين: "مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها؛ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره وطاعته"، وقال آخر: "إنه ليمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب"، وقال آخر: "والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته".

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

(٢) رواه البخاري.

٣- ومن علامات صحة القلب: أنه لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره إلا بمن يدله عليه، ويذكره به، ويذاكره بهذا الأمر.

٤- أنه إذا فاته ورده - من ليل أو نهار - وجد لفواته ألماً أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

٥- أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقرَّة عينه، وسرور قلبه.

٦- أن يكون همه واحداً، وأن يكون في الله.

٧- أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعاً من أشد الناس شحاً بماله ومنعاً.

٨- أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منَّة الله عليه فيه، وتقصيره في حق الله.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي همه كله في الله، وحبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابه، والخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا من حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له، وقرة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتاً إلى غيره تلا عليها:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[1]، فيردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه، فيصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية محبة محبوبه لخدمته وقضاء أشغاله.

فكلما عرض له أمر من ربه أو نهي أحس من قلبه ناطقاً ينطق: لبيك وسعديك، إني سامع مطيع ممتثل، ولك علي المنة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك، وإذا أصابه قدر وجد من قلبه ناطقاً يقول: أنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز

---

(١) سورة الفجر٢٧، ٢٨.

الرحيم ، لا صبر لي إن لم تصبِّرني ، ولا قوة لي إن لم تحملني وتقوِّني ؛ ولا ملجأ إلا إليك ، ولا مستعان لي إلا بك ، ولا انصراف لي عن بابك ، ولا مذهب لي عنك ، فينظر بمجموعه بين يديه ، ويعتمد بكليته عليه ، فإن أصابه بما يكره قال: رحمة أهديت إليّ ، ودواء نافع من طبيب مشفق ، وإن صرف عنه ما يحب قال: شراً صرفه عني ، فكلما مسّه من السراء والضراء اهتدى بها طريقاً إليه ، وانفتح له بابا يدخل منه عليه ، كما قيل:

ما مني قدر بكره أو رضى ::: إلا إذا اهتديت به إليك طريقاً
أمضى القضاء على الرضى مني به ::: إني وجدتك في البلاء رفيقاً

ويقول ابن القيم مادحاً ومثنياً على صاحب القلب السليم: فَلِلَّهِ هاتيك القلوب ، وما انطوت عليه من الضمائر ، وماذا أودعته من الكنوز والذخائر ، والله طيب أسرارها ولاسيما يوم تبلى السرائر

ستبدي لها طيب ونور وبهجة ::: وحسن ثناء يوم تبلى السرائر

تالله لقد رفع لها علم عظيم فشمرت إليه ، وامتبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه ، ودعاها إلى ما دون مطلوبها الأعلى فلم تستجب إليه واختارته على ما سواه ، وآثرت ما لديه"[1]

٩ - أَنْ يرتَحِلَ عن الدُّنيا حتى ينزلَ بالآخرةِ ، ويَحِلَّ فيها ، حتى يَبْقَى كأَنَّهُ مِن أهلِها وأَبنائِها ، جاءَ إلى هذه الدَّارِ غريباً يأْخُذُ منها حاجَتَهُ ، ويعودُ إلى وطنِه كما قال عليه السلام لعبدِ اللَّهِ بنِ عُمَر: «**كُنْ في الدُّنْيا كأَنَّكَ غريبٌ أَو عابرُ سبيلٍ، وعُدَّ نفسَكَ مِن أهلِ القُبورِ**» .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنّ الدنيا قد ترحلت مدبرة ، وإنّ الآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولكلٍّ منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإنَّ اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ، ولا عمل .

وكلما صحَّ القلبُ مِن مرضِه ؛ تَرَحَّلَ إلى الآخرَةِ ، وقَرُبَ منها ، حتى يصيرَ مِن أهلِها ،

---

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٧٠) . وما بعدها . الناشر: دار المعرفة - بيروت . الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ) . تحقيق: محمد حامد الفقي . موقع إمام المسجد .

وكلَّما مَرِضَ القلبُ واعتَلَّ؛ آثرَ الدُّنيا واستوطَنَها، حتى يصيرَ مِن أَهلِها.

١٠ - أَنْ يُنيبَ إلى اللَّهِ ويُخْبِتَ إليهِ، فلا فلاحَ، ولا نعيمَ، ولا سرورَ؛ إلاَّ برضاه وقُرْبِهِ والأُنسِ بهِ، فبهِ يطمئِنُّ، وإليهِ يسكُنُ، وإليهِ يأْوي، وبهِ يفرَحُ، وعليهِ يتوكَّلُ، وبهِ يَثِقُ، وإيَّاهُ يرجو، ولهُ يخافُ.

فذِكْرُهُ غذاؤهُ وحياتُه ونعيمُهُ ولذَّتُهُ وسُرورُهُ والالتفاتُ إلى غيرِهِ والتعلُّقُ بسواهُ: داؤهُ، والرُّجوعُ إليهِ: دواؤهُ.

قالَ أَبو الحسينِ الورَّاقُ: حياة القلبِ في ذِكرِ الحيِّ الذي لا يموتُ، والعيشُ الهنيُّ الحياةُ مع اللهِ تعالى لا غير.

١١ - أَنْ لا يَفْتُرَ عن ذِكْرِ ربِّهِ، ولا يسأَمَ مِن خِدْمَتِه، ولا يأْنَسَ بغيرِهِ؛ إلاَّ بِمَنْ يدلُّه عليه، ويُذَكِّرُهُ بهِ، ويُذاكِرُهُ بهذا الأمرِ.

١٢ - أَنَّهُ إذا فاتَهُ وِرْدُهُ وَجَدَ لفواتِه أَلَماً أعظمَ مِن تألُّمِ الحريصِ بفواتِ مالِهِ وفَقْدِهِ؛ كمن يحزن على فوت الجماعة، ويعلم أنّه لوْ تُقُبِّلتْ منه صلاته منْفرداً، فإنّه قدْ فاته سبعة وعشرون ضعفاً.

ولو أنّ رجلاً يعاني البيع والشراء تفوته صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة قيمتها سبعة وعشرون ديناراً؛ لأكل يديه ندماً وأسفاً، فكيف وكلّ ضعفٍ مما تضاعف به صلاة الجماعة خيرٌ من ألف، وألف ألف، وما شاء الله تعالى؟!

فإذا فوَّت العبد عليه هذا الربح قطْعاً، وهو بارد القلب، فارغ من هذه المصيبة، فهذا من ضعف الإيمان.

وكذلك إذا فاته الصف الأول الذي يصلي الله وملائكته عليه، ولوْ يعلم العبد فضيلته؛ لجالد عليه، ولكانت قرعة.

١٣ - أَنَّهُ يشتاقُ إلى طاعة ربه؛ كما يشتاقُ الجائعُ إلى الطَّعامِ والشرابِ.

١٤ - أَنَّهُ إذا دَخلَ في الصَّلاةِ ذَهَبَ عنهُ همُّهُ وغَمُّهُ بالدُّنيا، واشتدَّ عليهِ خروجُهُ منها،

ووجَدَ فيها راحتَهُ ونعيمَهُ، وقُرَّةَ عينِه وسُرورَ قلبِهِ، كما قال النبي ﷺ لبلال: «**يا بلال، أرحْنا بالصلاة**» ولم يقلْ: أرحنا منها كما يقول المُبْطلون الغافلون. وقال ﷺ: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»[1].

فصاحب القلب السليم راحته وقرّة عينه في الصلاة، والغافل المعرض ليس له نصيب من ذلك؛ بل الصلاة كبيرة شاقة عليه، إذا قام فكأنّه على الجمر حتّى يتخلص من واجب الصلاة، وعجّلها وأسْرعها، فهو ليس له قرّة عين فيها، ولا لقلبه راحة بها، فهي كبيرة على هذا، وقرّة عين وراحة لذلك.

١٥ - أَنْ يكونَ هَمُّهُ واحداً، وأَنْ يكونَ في اللّهِ تعالى. فهمّه طاعة ربه، ورضا ربه، وعفو ربه، ومغفرة ورحمة ربه ﴿وَعَجِلتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾[2].

العلامة الثامنة: أَنْ يكونَ أَشَحَّ بوَقْتِهِ أَنْ يذهَبَ ضائِعاً مِن أشدِّ النّاسِ شُحّاً بمالِهِ؛ لأنّه يرى عزّةَ وقتِهِ وخطره وشرفه، وأنّه رأس مال سعادته فيبخل به أنْ يضيعه فيما لا يقربه إلى ربّه؛ فإنّ في إضاعته الخسران والحسرة والنّدامة، وفي حفظه وعمارته الربح والسعادة. فيشح بأنفاسه أنْ يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده.

١٦ - أَنْ يكونَ اهتمامُهُ بتصحيح العملِ أَعظمَ منهُ بالعملِ، فيحْرِصُ على الإخلاص فيهِ والنَّصيحةِ والمُتابعةِ والإحسانِ، ويشهَدُ مَعَ ذلك منّةَ اللّهِ عليهِ وتقصيرَهُ في حقِّ اللّهِ.

فهذه المشاهدَ لا يشهَدُها إلا القلبُ الحيُّ السليمُ.

١٧ - أَنْ يكون سالماً من محبة ما يكرهه الله، فدخل في ذلك سلامته من الشرك الجلي والخفي، ومن الأهواء والبدع، ومن الفسوق والمعاصي - كبائرها وصغائرها - الظاهرة والباطنة، كالرياء، والعجب، والغلّ، والغش، والحقد، والحسد، وغير ذلك.

عنْ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل: لرسول الله ﷺ أيّ النّاس أفْضلُ؟ قال: «**كلُّ مخْمومِ القلب، صدوقِ اللسانِ**». قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخمومُ

---

(١) رواه أحمد.

(٢) طه: ٨٤.

القلب؟ قال: «**هو التّقيّ النّقيّ لا إثْم فيه، ولا بغي ولا غلّ ولا حسدْ**»[١].

١٨ - اتباع هدي المصطفى ﷺ؛ عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال لي: «**يا أبا أمامة! إنّ من المؤمنين من يلين لي قلبه**»[٢].

ومعنى (يلين لي قلبه) أي يسكن ويميل إليّ بالمودّة والمحبّة.

وليس ذلك إلا بإخلاص الاتباع لـه ﷺ دون سواه من البشر، لأن الله تعالى جعل ذلك وحـده دلـيلاً على حبه عزوجل، فقال: ﴿قلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٣].

أفلم يأن للذين يزعمون حبه ﷺ في أحاديثهم وأناشيدهم، أن يرجعوا إلى التمسك بهذا الحب الصادق الموصل إلى حب الله تعالى، ولا تكونوا من هؤلاء:

تعـصي الإله وأنت تظـهر حبـه ::: هذا لعمـرك في القـياس بديـع
لـو كـان حبـك صادقـاً لأطعتـه ::: إنّ المحـبّ لـمن يـحبّ مطيـع

١٩ - الوجل عندْ ذكر الرحمن. والوجل خوف مقْرونٌ بهيبةٍ ومحبّةٍ.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَبَشِّرْ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٥].

وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[٦].

وعـن أبـي عنـبة الخولانـي رضـي الله عـنه قـال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ لله آنية في الأرض، وآنية ربّكمْ قلوب عباده الصالحين، وأحبُّها إليه ألينها وأرقُّها**».

والمعنى أنهـا ذات خـشية واستكانة سريعة الاستجابة والتأثر بقوارع التذكير سالمة من

---

(١) شرح سنن ابن ماجه للسندي.
(٢) رواه أحمد في مسنده.
(٣) آل عمران ٣١.
(٤) الحج: ٣٤، ٣٥.
(٥) الأنفال: ٢.
(٦) المؤمنون: ٦٠.

الشدّة والقسْوة .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[1] قالت: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات**» وهم لها سابقون .

ومن تأمَّل أحْوال الصحابة رضي الله عنهمْ وجدهمْ في غاية العملِ مع غايةِ الخوفِ ، ويعدُّون أنفسهم من المقصِّرين المفرِّطين المذْنبين ، ونحن مع إساءتنا نعدُّ أنفسنا من المحسنين .

وبالجملة ؛ فالقلبُ الصَّحيحُ: هو الذي همُّهُ كلُّهُ في اللَّهِ ، وحُبُّهُ كلُّهُ لـه ، وقصدُهُ لـه ، وبَدنُهُ لـه ، وأعمالُه لـه ، ونومُهُ لـه ، ويقظتُهُ لـه ، وحديثُهُ ، والحديث عنهُ أشْهى إليهِ مِن كُلِّ حَديثٍ ، وأفكارُهُ تحوم على مراضيه ومحابِّه . فكلُّه بالله ، وكلُّه لله ، وكلُّه مع الله ، وسيرهُ دائماً إلى الله ، فهو مع الله مجرَّدٌ عن خلقهِ ، ومع خلقهِ مجرَّدٌ عن نفسه .

* * * * *

(١) المؤمنون: ٦٠ .

المبحث السابع:

النجاة وصاحب القلب السليم!!!

القلب السليم هو الطاهر من أدناس المخالفات، فأما المتلطخ بشيء من المكروهات فلا يصلح لمجاورة حضرة القدس - أو القدوس، "حضرة القدس" هذه العبارة، وبهذه العبارة الدارجة في اللسان من يتكلم بهذه الكلمة -.

ومن لم يحرق اليوم قلبه بنار الأسف على ما سلف، أو بنار الشوق بلقاء الحبيب - فنار جهنم له أشد حرا، ما يحتاج إلى التطهير بنار جهنم إلا من لم يكمل تحقيق التوحيد والقيام بحقوقه، فلا ينجو من عذاب الله يوم القيامة إلا صاحب القلب السليم.. نعم، قال الله - سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

هذا جاء في ثنايا قصة إبراهيم ودعاء إبراهيم: ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2].

و الله عز وجل أخبر عن إبراهيم عليه السلام أيضا بسلامة القلب: ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3] فالقلب السليم جاء في هذين الموضوعين كليهما، يعني: الأولى في كلام إبراهيم، والثانية في وصف الله لإبراهيم.

والقلب السليم، سليم: صيغة تدل على السلامة، ضد العليل وضد المريض، سليم سالم، يقول النسائي: القلب السليم هو السالم من المخالفات، المخالفات: مخالفات الأوامر والنواهي، بترك مأمور، أو فعل محذور، هذه هي المخالفات.

فلا ينجو من عذاب الله نجاة مطلقة بحيث لا يناله عذاب إلا صاحب القلب السليم، من أتى الله بقلب سليم فهذا هو الذي ينجو، لا يتعرض للعذاب، لا يتعرض لشيء من

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.
(٢) الشعراء: ٨٥ - ٨٩.
(٣) الصافات: ٨٣، ٨٤.

العذاب لسلامة قلبه ، وعلى هذا فيدخل الجنة من أول وهلة .

والقلب السليم: هو السالم من فتن الشهوات وفتن الشبهات ، فتن الشهوات التي تعارض أمر الله ، الشهوات تعارض الأمر والنهي ، وفتن الشبهات التي تعارض خبر الله ، ففتن الشهوات تحمل على المعصية والمخالفة ، بترك المأمور وفعل المحذور ، والشبهات تضعف اليقين ، أو تورث الشك فيما أخبر الله به ورسوله .

إذن فالقلب السليم لا بد أن يسلم اعتقاده من عوارض الشبهات ، وتسلم إرادته من عوارض الشهوات ، فالقلوب أقسام: فيها القلب السليم ، والقلب المريض ، والقلب الميت ، الميت الذي لا حس ولا إرادة ولا حركة - ميت - وهو قلب كافر و . . . . إلخ .

القلب الميت هو القلب الكافر ، والقلب السليم هو القلب المؤمن كامل الإيمان ، والمريض هو القلب المخلط الذي فيه مادتان: مادة الحياة ، ومادة مرض أو مادة موت ، وهو لما غلب عليه منهما .

ففي الحديث الصحيح: «**تعرض الفتن على القلوب عودا عودا كعرض الحصير، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت في قلبه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب إلى قلبين: قلب أبيض فيه السواد، وقلب أسود مرباد كالكوز مجخيا، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه**» .

* * * * *

المبحث الثامن:

القلب السليم.. وسعادة الدنيا والآخرة

لسلامة القلب عظيم الأثر في سعادة المرء في الدنيا والآخرة؛ فلا يكاد العبد ينتفع بشيء في دنياه وأخراه أعظم من انتفاعه بسلامة قلبه، سلامته من الشرك والنفاق والرياء والكبر والعجب وسائر الأمراض التي تعتريه، ولا أعني أمراض البدن التي منها أمراض القلوب، وإنما أعني تلكم الأمراض التي تعتري القلب مما يتعلق بدينه؛ فهي أعظم الأمراض فتكا على الإطلاق وأشدها تدميرا وأسوأها أثرا؛ بل وليست هناك مقارنة على الإطلاق بين مرض بدني يعتري القلب ويحتاج إلى بعض الأدوية والمسكنات، وبين مرض يجرح دينه ويذهب تقواه.

فالأخير يجلب على العبد نكدا وهما وغما وعذابا في الدنيا والآخرة.

أما الأول فقد يثاب عليه العبد المؤمن إذا صبر واحتسب كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياه**»[1].

ولكن من قصور نظر الخلق وقلة أفهامهم وضيق مداركهم لا يولون الأهم والأخطر - وهو المرض المتعلق بالدين - أدنى أهمية، وفي المقابل إذا شعر أحدهم بأي مرض عضوي يعتري قلبه من قلة نبضات أو سرعتها أو أي نوع من تلكم الأمراض فإنه يبادر وبسرعة بالذهاب إلى الأطباء، ويسأل عن أعلم أهل الطب بطب القلوب، ويبحث عن أكثرهم مهارة وأحذقهم تطبيبا، ولم يدخر وسعا في الذهاب إليه، ولو كلفه ذلك الغالي والنفيس من دنياه وخفي على هؤلاء أن هذه الحياة الدنيا إنما هي سنوات قليلات وأيام معدودات، وبعد ذلك فهنالك الدار الآخرة التي هي الحيوان لو كانوا يعلمون، تلكم الدار التي يحتاج القرار فيها إلى

---

(١) سنن الترمذي.

سلامة القلب من الشرك والنفاق والعجب والرياء وسائر الأمراض التى سأتحدث عنها لخطورتها وسوء أثرها .

* قال خليل الله إبراهيم ﷺ : ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[١] .

* قلب سليم من الشك والشرك والشقاق والنفاق!! ، سليم من الغل وسليم من الرياء - سليم من الأحقاد .

سليم لم يصب بالقسوة ولم يختم عليه بالأختام!

سليم لم يتلوث بآثار الجرائم والذنوب والمعاصي .

ولم يتدنس بالبدع والخرافات والأوهام وظن السوء .

* قال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[٢] . القلب السليم: أن يشهد أن لا إله إلا الله .

وقال مجاهد والحسن وغيرهما: بقلب سليم . يعني: من الشرك .

وقال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة .

ولا تنافي بين هذه الأقوال فإنها متلازمة فإن الاعتقاد الصحيح بلا إله إلا الله يقاضي التوقي من الشرك كله والبعد عن البدعة والتحقق من السنة .

قال الله تعالى: ﴿ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾[٣] .

أي: مرض الشهوات المفرطة .

كما أن سلامة القلب تقتضي السلامة من الأوصاف الذميمة: كالغل -

---

(١) الشعراء: ٨٧ - ٨٩ .
(٢) الشعراء: ٨٩ .
(٣) الأحزاب ٣٢ .

obeikandi.com

والحقد - والحسد - والبغضاء .

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل يابني وذلك من سنتي**» .

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل: يارسول الله أي الناس أفضل؟

قال: «**كل مخموم القلب. صدوق اللسان**» . قالوا: صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟

فقال ﷺ : «**هو التقي النقي لا أثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد**»[1] ، فالخير كل الخير والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة في سلامة القلب من الشرك والشك والنفاق وسوء الأخلاق .

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا ونفسه مطمئنة وخليقته - أي: طريقته - مستقيمة وجعل أذنه مستمعة وعينه ناظرة فأما الأذن فقمع والعين مقرة بما يوعي القلب وقد أفلح من جعل قلبه واعيا**»[2] .

روى الترمذي عن رجل من بنى حنظلة قال: صحبت شداد بن أوس رضي الله عنه فقال لي: ألا أعلمك ما كان رسول الله ﷺ يعلمنا أن نقول؟: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر وأسألك عزيمة الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك لسانا صادقا وقلبا سليما وأعوذ بك من شر ما تعلم وأسألك من خير ما تعلم**

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقي وغيره .

(٢) قال المنذري رواه أحمد والبيهقي .

وأستغفرك مما تعلم إنك علام الغيوب»[١].

ومن الواجب على المسلم أن يكون سليم القلب من الحقد والحسد والضغينة والغل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[٢].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»[٣].

سليم يحمل كل هذه المعاني:

* هذا هو القلب الذي ينفع صاحبه يوم القيامة، كما انتفع الخليل إبراهيم عليه السلام ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾[٤]، إبراهيم الذي ابتلاه الله بكلمات فأتمهن فجعله الله للناس إماما ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[٥].

* بصلاح هذا القلب يصلح سائر الجسد، كما قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[٦].

* هذا القلب المنيب الذي يورث صاحبه الجنان وتقرب له وتدنى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[٧].

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) رواه مسلم.
(٤) النجم: ٣٧.
(٥) الصافات: ٨٤.
(٦) صحيح مسلم / أخذ الحلال وترك الشبهات.
(٧) ق: ٣١ - ٣٥.

obeikandl.com

أسأل الله أن يصلح قلبي وقلوب عباده المؤمنين ، وأن يقذف فيها الهدى والتقى والعفاف والغنى ، وأن يزيد فيها الإيمان وأن يثبتها على دينه ، وأسأل الله أن يجازينا والمؤمنين على الإحسان إحسانا وعلى السيئات مغفرة وعفوا ، كما نسأله سبحانه أن يحل علينا رضوانه فلا يسخط علينا بعده أبدا [١] .

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم .

* * * * *

(١) من كتاب / شفاء القلوب للشيخ/ مصطفى بن العدوي .

obeikandl.com

المبحث التاسع:

ماهى الأسباب التى تساعدنى على سلامة قلبى؟

١ – الدعاء.

فإنه من أعظم الأسباب لتحقيق المقصود، وكان من دعاء نبينا ﷺ : «**وأسألك قلبًا سليمًا**»، فمن رزق الدعاء فإن الإجابة معه. كما أثنى الله على المؤمنين لدعائهم: ﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمنُوا ﴾[1].

٢ – حُسن الظن وحمل الكلمات والمواقف على أحسن المحامل.

قال عمر: لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً.

وقال الشافعي: من أراد أن يقضي له الله بخير فليحسن ظنه بالناس.

ولما دخل عليه أحد إخوانه يعوده قال: قوّى الله ضعفك، فقال الشافعي رحمه الله: لو قوى ضعفي لقتلني، قال الزائر: والله ما أردت إلا الخير، فقال الإمام: أعلم أنك لو سببتني ما أردت إلا الخير.

٣ – التماس الأعذار وإقالة العثرات والتغاضي عن الزلات.

يقول ابن سيرين: إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا فإن لم تجد فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه.

أخي من منا المعصوم عن الخطأ والزلات؟ قال بعضهم: الفتوة التجاوز عن زلات الإخوان.

تذكّر سوابق الإحسان لأخيك فإنه مما يعين على التماس العذر وسلامة

---

(١) سورة الحشر: ١٠.

الصدر واعلم أن الرجل من عُدَّت سقطاته .

استحضر أن المؤمن يلتمس المعاذير ، والمنافق يلتمس العثرات .

٤ – ادفع بالتي أحسن.

ليس هذا من العجز ، بل من القوة والكياسة قال الله تعالى: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[1] .

٥ – البعد عن الغيبة والنميمة وتجنب كثرة المزاح.

٦ – الهدية والمواساة بالمال فإنها من دواعي المحبة.

٧ – الإيمان بالقدر.

فإن العبد إذا آمن أن الأرزاق مقسومة مكتوبة رضي بما هو فيه ولم يجد في قلبه حسدا لأحد من الناس على خير أعطاه الله إياه .

٨ – تذكر حال النبي ﷺ.

الذي كان يشكر ربه على النعم التي أنعم بها حتى على غيره من الخلق حين يصبح وحين يمسي .

رزقنا الله وإياكم قلوبا سليمة لا تحمل غلا ولا حسدا ولا حقدا . . . أمين .

ومما ورد مسنداً إلى القلب غير السليم:

١ – الإنكار: ﴿ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾[2] .

---

(١) فصلت: ٣٤ .

(٢) النحل: ٢٢ .

٢ - الكبر: ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾[١]. ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[٢].

٣ - الإعراض واللهو: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾[٣].

٤ - الاشمئزاز: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾[٤].

٥ - الزيغ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[٥]... ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾[٦].

٦ - العمى: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[٧].

٧ - القفل وعدم الفقه وعدم العقل: وقد تقدم ما يدل عليها.

٨ - المرض: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾[٨].

٩ - القسوة: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[٩].

---

(١) غافر: ٥٦.
(٢) غافر: ٣٥.
(٣) الأنبياء: ٢، ٣.
(٤) الزمر: ٤٥.
(٥) الصف: ٥.
(٦) آل عمران: ٧.
(٧) الحج: ٤٦.
(٨) البقرة: ١٠.
(٩) البقرة: ٧٤.

obeikandi.com

١٠ - الغمرة: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾[١] .

١١ - الران: ﴿ كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢] .

١٢ - العداوة للحق وأهله: ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[٣] . والآيات في ذلك وعلاقته بأعمال الجوارح كثيرة أيضاً، وأكثر مما ذكرنا الآيات الواردة في أعمال القلوب، لكن لم يُذْكَر فيها لفظه؛ كآيات الخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والرضا وغيرها .

* * * * *

(١) المؤمنون: ٦٣ .
(٢) المطففين: ١٤ .
(٣) آل عمران: ١١٨ .

obeikandl.com

المبحث العاشر:

فضل سلامة القلب ومنزلتها عند الله تعالى

يا صاحب القلب السليم أنت من صفوة الله المختارة!!!

فقد سألوا رسول الله ﷺ عن أفضل الناس، فقال: «**كل مخموم القلب صدوق اللسان**». قالوا: صدوق اللسان نعرفه؛ فما مخموم القلب؟ قال: «**التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد**»[١].

ثم نقول: إن سلامة القلب سببٌ من أعظم أسباب قبول الأعمال الصالحة.

قال ﷺ: تعرض الأعمال كل يوم إثنين وخميس، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئٍ لا يشرك بالله شيئًا، إلا امرءًا كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول: أنظروا هذين حتى يصطلحا". فانظر كم يضيع على نفسه من الخير من يحمل في قلبه الحقد والحسد والغل؟!!

سلامة القلب طريق إلى الجنة:

فأول زمرة تدخل الجنة: . . . لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد[٢].

وقصة عبد الله بن عمرو مع ذلك الرجل الذي قال عنه النبي ﷺ: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**» معروفة فقد عاشره عبد الله ثلاث ليال فلم يجده كثير التطوع بالصلاة أو الصيام فسأله عن حاله فقال الرجل: "ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشًا ولا أحسُد أحدًا على خير أعطاه الله إياه".

فأعلنها ابن عمرو صريحة مدوية: هذه التي بلغت بك . . .

وقد أخبر الله تعالى عن حال أهل الجنة فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقي وغيره.
(٢) البخاري.

قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يجدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[١].

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ ﴾[٢]، ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾[٣].

فهيا لنطهر قلوبنا من الحقد والغل والحسد حتى نسعد بصحبة الأبرار الصالحين، ونفوز بالقرب من رب العالمين، فإن النبي ﷺ أخبر عن عبادٍ ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء، على مجالسهم وقربهم من الله، فلما سئل عنهم أخبر أنهم أُناس لم تصل بينهم أرحام متقاربة.. لكنهم تحابوا في الله، وتصافوا..

فهلا سلمت صدورنا للمسلمين وصفت؟

* * * * *

(١) الحشر: ٩، ١٠.
(٢) الأعراف: ٤٣.
(٣) الحجر: ٤٧.

obeikandl.com

المبحث الحادى عشر:

قسوة القلب

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] فقد أصبحت قلوبنا فيها قسوة عجيبة ، خلق الله تعالى القلب مهيئا لقبول المعارف والعلوم بأنواعها وعلى اختلافها ومنها العلوم العقلية الدنيوية كالطب والهندسة والحساب وهذه المعارف وما شابهها تساعد الإنسان على تسخير ما خُلِقَ له كى ينتفع به ، وكذلك معارف أخروية كالعلم بوجود الله وتوحيد الله وكالعلم بربوبية الله وصفات الله وأسمائه كل هذه المعارف تورث القلب الخضوع والخوف والخشية لله تعالى ، ومنها العلوم الشرعية التي تختص بالأحكام وبيان الحلال والحرام والعبادات

وغيرها وهي علوم مكتسبة ومحل هذه العلوم القلب .

ولكن إذا فُرِّغَ القلب من هذه العلوم يحل محلها الجهل واتباع الهوى والميل إلى النزوات والشهوات وعدم الإدراك والتمييز وكذلك عدم السيطرة على الجوارح فيصبح القلب تابعاً لهواه غارقاً في ذنوبه غافلاً عما يدور في مملكته فيضل عن طريق مولاه . قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية)

فالذي ختم على سمعه وقلبه يعني طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى قال مقاتل: أنزلت في أبي جهل وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة فتحدثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل: والله إني لأعلم إنه لصادق! فقال مه! وما دلَّك على ذلك؟ قال كنا نسميه في صباه الصادق الأمين فلما تمَّ عقله وكَمُل رشده نسميه الكذاب الخائن؟ والله إني لأعلم إنه لصادق ، قال فما يمنعك أن تُصدِّقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب واللاتِ والعزى لن أتبعه

---

(١) الأنعام: ٤٣ .

أبداً فنزلت: ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ [١] .

وكذلك قولـه تعالى: ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(ص: ٢٦) .

أسباب قسوة القلب:

١ - البعد عن طاعة الله والاشتغال بمعصيته .

٢ - التعلق بالدنيا والحرص عليها ، وطول الأمل .

٣ - نسيان الآخرة وما فيها من النعيم .

٤ - الاشتغال بما يفسد القلب ، ومفسدات القلب خمسة هي: كثرة المخالطة ، والأماني الباطلة ، والتعلق بغير الله ، وكثرة الطعام ، وكثرة النوم .

٥ - التكاسل عن أداء الطاعات وإضاعتها .

٦ - عدم التأثر بآيات القرآن ، لا بوعده ولا بوعيده .

٧ - الغفلة ، وهي داء وبيل ، ومرض خطير .

٨ - مصاحبة أصدقاء السوء والجلوس في الأجواء الفاسدة .

٩ - نسيان الموت وسكراته ، والقبر وأهواله .

علاج قسوة القلب:

١ - الاشتغال بذكر الله جل وعلا وملازمة الاستغفار .

٢ - النظر في آيات القرآن والتفكر في وعده ووعيده ، وأمره ونهيه .

٣ - تذكر الآخرة والتفكر في القيامة وأهوالها والجنة والنار .

٤ - الخلوة بالنفس ومحاسبتها ومجاهدتها .

٥ - البعد عن مخالطة أصدقاء السوء ، والحرص على مجالسة الصالحين

---

(١) الطبري .

obeikandl.com

مفسدات القلب الخمسة:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: وأما مفسدات القلب الخمسة، فهي التي أشار إليها من كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب.

١ - كثرة المخالطة:

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود ويوجب له تشتتاً وتفرقاً وهماً وغماً وضعفاً وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم وتقسيم فكره في أودية مطالبهم وإرادتهم فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟

هذا وكم جلبت خلطة الناس من نقمة ودفعت من نعمة وأنزلت من محنة وعطلت من منحة وأحلت من رزية وأوقعت في بلية وهل آفة الناس إلا الناس؟

وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضر من قرناء السوء لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة ويعض المخلط عليها يديه ندما كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾[2].

وقال خليله إبراهيم لقومه: (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من

(١) الفرقان: ٢٧ - ٢٩.
(٢) الزخرف: ٦٧.

ناصرين)[١] .

وهذا شأن كل مشتركين في غرض يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزنا وألما وانقلبت تلك المودة بغضاً ولعنةً وذماً من بعضهم لبعض .

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة ، والأعياد والحج وتعلم العلم والجهاد والنصيحة ، ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات .

فإذا دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر

الحذر أن يوافقَهم ، وليصبر على أذاهم ، فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر . ولكن أذى يعقبُه عزٌّ ومحبة له وتعظيم ، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ، ومن رب العالمين ، وموافقتهم يعقبها ذُلٌ وبُغْضٌ له ، ومقتٌ وذمٌّ منهم ، ومن المؤمنين ومن رب العالمين . فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلاً .

وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه .

٢ - ركوبه بحر التمني:

وهو بحرٌ لا ساحل له . وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم ، كما قيل: إن المنى رأس أموال المفاليس . فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة ، والخيالات الباطلة ، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة ، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية . ليست لها همّة تنال بها الحقائق الخارجية . بل اعتاضت عنها بالأمانيّ الذهبية . وكلٌّ بحسب حاله: من متمن للقدرة والسلطان ، وللضرب فى الأرض والتطواف في البلدان ، أو للأموال والأثمان ، أو للنسوان والمردان ، فيمثل المتمني صورة مطلوبة في نفسه وقد فاز بوصولها ، والتَذَّ بالظفر بها ، فبينا هو على هذه الحال ، إذا استيقظ ، فإذا يده والحصير!!

---

(١) العنكبوت: ٢٥ .

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان، والعمل الذي يقربه إلى الله، ويدنيه من جواره.

فأماني هذا إيمان ونور وحكمة وأماني أولئك خِدَعٌ وغرور.

وقد مدح النبي ﷺ متمنيَ الخير، وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله. كالقائل: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربه ويصل فيه رحمه ويخرج منه حقه وقال: هما في الأجر سواء وتمنى ﷺ في حجة الوداع: أنه لو كان تمتع وحل ولم يسق الهدي وكان قد قرن فأعطاه الله ثواب القران بفعله وثواب التمتع الذي تمناه بأمنيته فجمع له بين الأجرين.

٣ - التعلق بغير الله تبارك وتعالى:

وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضر من ذلك ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه فإنه إذا تعلق بغير الله وكَلَه الله إلى ما تعلّق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه. فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمَّله ممن تعلَّق به وصل. قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزاً * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾[2].

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلّق به. وهو مُعَرَّض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظلِّ من الحرِّ والبرد ببيتِ العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بنى عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذمُّ

---

(١) مريم: ٨١، ٨٢.
(٢) يس: ٧٤، ٧٥.

والخذلان ، كما قال تعالى: ﴿ لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً﴾[1] .

مذموماً: لا حامد لك ، مخذولاً: لا ناصر لك . إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذي قُهِرَ بباطل ، وقد يكون مذموماً منصوراً كالذي قهر وتسلط بباطل ، وقد يكون محموداً منصوراً كالذي تمكَّن وملك بحق . والمشرك المتعلق بغير الله قِسمُه أردأ الأقسام الأربعة ، لا محمود ولا منصور .

٤ – الطعام:

والمفسد له من ذلك نوعان: أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات وهي نوعان:

الأول: محرمات لحق الله كالميتة والدم ولحم الخنزير وذي الناب من السباع والمخلب من الطير .

ومحرمات لحق العباد كالمسروق والمغصوب والمنهوب وما أخذ بغير رضى صاحبه إما قهراً وإما حياءً وتذمماً .

والثاني: ما يفسده بقدره وتعدي حده ، كالإسراف في الحلال والشبع المفرط ، فإنه يثقله عن الطاعات ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها حتى يظفر بها فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها والتأذى بثقلها وقوى عليه مواد الشهوة وطرق مجاري الشيطان ووسعها فإنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقها والشبع يطرقها ويوسعها ومن أكل كثيرا شرب كثيرا فنام كثيرا فخسر كثيرا وفي الحديث المشهور: ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ويحكى أن إبليس لعنه الله عرض ليحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فقال له يحيى: هل نلت مني شيئا قط قال: لا إلا أنه قدم إليك الطعام ليلة فشهيته إليك حتى شبعت منه فنمت عن وردك فقال يحيى: الله علي أن لا أشبع من طعام أبدا فقال إبليس: وأنا لله علي أن لا أنصح آدمي أبدا .

---

(١) الإسراء: ٢٢ .

٥ – النوم:

فصل المفسد الخامس كثرة النوم فإنه يميت القلب ويثقل البدن ويضيع الوقت ويورث كثرة الغفلة والكسل ومنه المكروه جدا ومنه الضار غير النافع للبدن وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه وكثر ضرره ولا سيما نوم العصر والنوم أول النهار إلا لسهران ومن المكروه عندهم النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس فإنه وقت غنيمة وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس فإنه أول النهار ومفتاحه ووقت نزول الأرزاق وحصول القسم وحلول البركة ومنه ينشأ النهار وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول وسدسه الأخير وهو مقدار ثمان ساعات وهذا أعدل النوم عند الأطباء وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافا بحسبه ومن النوم الذي لا ينفع أيضا: النوم أول الليل عقيب غروب الشمس حتى تذهب فحمة العشاء وكان رسول الله ﷺ يكرهه فهو مكروه شرعا وطبعا وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات فمدافعته وهجره مورث لآفات أخرى عظام: من سوء المزاج ويبسه وانحراف النفس وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل ويورث أمراضا متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها وما قام الوجود إلا بالعدل فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير والله المستعان . .

أعداء القلب:

قد علمنا أن القلب هو مَلِك الجسد والجوارح وما من ملك إلا وله أعداء وما من مملكة إلا ويتربص بها أعداؤها فعدو الإنسان القديم الجديد هو الشيطان كما تعلمون فقد أخبرنا بذلك ربنا تعالى في قوله: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾(فاطر) وخطورة هذا العدو تكمن في أنه يرانا ولا نراه ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (الأعراف ٢٧) فلذلك كان من السهل عليه أن يقتحم أسوار مملكة القلب بأساليبه المتعددة التي لا تخفى على أحد إذ يُبين ذلك الحق تبارك وتعالى حكاية عن إبليس

وأعوانه ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾(الأعراف ١٧)

أي أنه يأتي من أربعة جوانب فقط من بين ستة فلم يأت من فوق ولا تحت فأما الفوق فهو طريق صلة العبد بربه من خلال العبادة والذكر قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (فاطر: ١٠).

ولذلك أخي وحبيبي كانت النية سراً بين العبد وبين ربه لا يَطَّلِع عليها مَلَك فيكتبها ولا يطلع عليها شيطان فيفسدها، فإذا حافظ العبد على صدق نيته وسريرته مع الله ومع الناس وأطاب الكلام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام وأحسن في عبادته لله تعالى فهو الفلاح بعينه ولابد للإنسان ألا يتكبر كما تكبر الشيطان لأنه امتنع عن الجهة السفلى فلابد للإنسان أن يكون متواضعا وأن ينظر دائما إلى التراب ويتذكر أنه خُلق من تراب وأنه سيعود إلى التراب مرة أخرى، فلا يتكبر ولا يتجبر كما فعل الشيطان فطرد من رحمة الله تعالى بسبب الكِبْر، هذا وقد بين لنا النبي ﷺ في الحديث الذي روته صفية رضي الله عنها حيث قال: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[1].

لذا كان واجب علينا أن نضيق مجاريه بالجوع . . . فكثرة الطعام تؤدي إلى الترهل والخمول والكسل عن ذكر الله تعالى وأداء الواجبات، وإذا تمكن الشيطان من القلب بوساوسه خرجت الشهوات عن حد الاعتدال فقد ينسى الإنسان ذكر الله بسبب استحواذ الشيطان على قلبه ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ (المجادلة: ١٩).

ولكن إذا اتجه العبد المؤمن إلى ربه وتملك شهواته هنا يصبح الشيطان ذليلا ليس له أي سيطرة على قلب الإنسان إلا مجرد وساوس ليس لها أي تأثير بمجرد ذكر الله تعالى يصبح ليس لها وجود قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

---

(١) متفق عليه.

وكأن الشيطان يعميهم ويغشي أبصارهم ولا يعيدهم للإبصار إلا ذكر الله تعالى .

لّمة المَلَك ولّمة الشيطان:

عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن للشيطان لَمَّة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**»[1] .

وهذا ما يسمى بالخواطر التي ترد على القلب فإذا كانت من الملك وفيها لخير فعلى العبد أن يمتثل لها ويشكر الله على ذلك وأما إذا كانت من الشيطان فعليه أن يتعوذ بالله من شره حتى لا يمتلئ القلب بالرغبة والقبول لها فيهيج شهوته ويقع في المحظور .

لذلك يبشرك الحبيب ﷺ قائلاً فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «... **وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة**» [2].

فالحمد لله تعالى بمجرد أن العبد المؤمن يبصر بقلبه ويدرك ويفرق بين السيئة والحسنة فيبتعد عن فعل السيئة بعد أن هم بفعلها فيذكر ربه ويتوقف عن ذلك هنا يرجع مأجورا كالرجل الذي أراد أن يزني بامرأة وعندما هم بارتكاب الفاحشة نظر إلى السماء فقال لها: لا يرانا إلا هذه الكواكب فنظرت إليه المرأة قائلة له: وأين مُكَوكِبُها؟ فامتنع الرجل عن فعله وخاف فهنا رجع مأجوراً ولكن الشيطان يعود محسورا فقد أراد الإضلال ولكن الرحيم بعفوه ومغفرته ونصره للمؤمنين كان مع عبده فأرجعه مأجورا ولله الحمد والمنة .

* * * * *

(١) رواه الترمذي وحسنه والنسائي .

(٢) رواه الشيخان عن ابن عباس .